

الفصل الأول

الحجاز

الحجاز

اكتسب الحجاز أهمية دينية واقتصادية خاصة بين أقاليم الجزيرة العربية، فالأهمية الدينية من وجود الكعبة فيه، والاقتصادية لأنه مثل مرحلة هامة اقتصاديا بسبب مرور التجارة العالمية في أراضيه، مما ترك أثراً فعالاً في الحياة الاجتماعية والسياسية، فازدادت القبائل العربية في الحجاز تقارباً وتآلفاً، وارتبطت أعداد وفئات كثيرة من سكان الحواضر والبادية بالعملية التجارية وانقسمت قبائل الحجاز آنذاك حسب نوع العمل إلى قبائل بدوية متجولة في المناطق السهبية الصحراوية وقبائل فلاحية مستقرة مارسست الزراعة وقبائل اعتمدت التجارة أساساً لحياتها المعيشية. ولكي نفهم الأسباب التي أدت إلى هذا التقسيم لا بد لنا من البحث عن:

1 - الوضع الجغرافي:

ظل الحجاز كمصطلح جغرافي غير ثابت الحدود منطقياً على شيء من التماوج. منحسراً حيناً، متداخلاً مع إقليم أو أكثر أحياناً أخرى، مختلف المعالم بين آونة وأخرى، مما حال دون استقرار حدوده لدى الجغرافيين العرب، وتأرجح الحواضر من إقليم إلى آخر، كأن يمتد الحجاز مثلاً إلى بوادي الشام في الشمال⁽¹⁾ أو يتراجع

(1)؛ الهمداني (لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب) صفة جزيرة العرب، دار اليمامة 1974 ص 58 - يختصر إلى الصفة، الحموي (ياقوت) معجم البلدان - دار أحياء التراث العربي - بيروت - لبنان 1399 - 1979 م مادة حجاز يختصر إلى ياقوت، البغدادي (محمد أمين) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط 1406 هـ - 1986 ص 16 يختصر إلى سبائك، الألوسي (محمود شكري) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، المطبعة الرحمانية بمصر ط 2، 1442 هـ - 1924 ج 1 ص 187 - يختصر إلى الواسي شريف (أحمد أبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول - دار الفكر العربي ص 13 يختصر إلى (شريف).

جنوباً وراء يثرب⁽²⁾، وقد تدخل يثرب في نجد القريبة منها، أوتعد مكة من تهامة اليمن، وتصبح اليمامة جزءاً مضافاً في الحجاز مع مكة والطائف⁽³⁾ إلى آخر هذه الحلقة المتماوجة التي لا نجد لها تحديداً مستقراً في كتابات الجغرافيين والرحالة. فلم يأخذ الحجاز ملامحه المستقلة كإقليم جغرافي متميز برغم تداخله بصورة متفاوتة مع تهامة واليمن، ونجد، إلا في القرن السادس الميلادي حيث أصبح مركز الاستقطاب الأول ومحور الحركة التجارية في الجزيرة العربية فأصبح التعريف المبدئي للحجاز بأنه الجبال الحاجزة بين الأرض العليا نجد، وبين الساحل الواطئ تهامة⁽⁴⁾. ولعل عدداً من المؤرخين يتفق وهذا التحديد كالمسعودي بقوله: "أنه حاجز بين الشام واليمن والتهائم"⁽⁵⁾ أو ما حجز بين الشام واليمن حسب تعبير الهمداني⁽⁶⁾. وقد أطلق على هذه السلسلة الجبلية اسم السراة⁽⁷⁾. أما سبب تسميته حجاز، فلأنه حجز بين الغور⁽⁸⁾ وهو هابط، وبين نجد وهو ظاهر⁽⁹⁾، أولكثرة الحرارة⁽¹⁰⁾ فيه واحتجاز أهله من العدو⁽¹¹⁾، فهو من الفعل حجز⁽¹²⁾، وقد حدد البكري الحجاز بقوله: حده الأول بطن نخل⁽¹³⁾ وأعلى رمة⁽¹⁴⁾ وظهر حرة ليلى⁽¹⁵⁾، والحد الثاني مما

(2) : اصطخري (ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي) المسالك والممالك 1381 هـ 1961 م، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة ص 25 يختصر إلى اصطخري ط 1961.

(3) : اصطخري ص 21، ط 1961

(4) : ياقوت، مادة حجاز، سبائك ص 16.

(5) : المسعودي: (أبي الحسن علي بن الحسين بن علي)، مروج الذهب، يختصر إلى مروج الذهب،

(6) : الصفة ص 50 - 58

(7) : المرتفع سمي بذلك لعلوه. ياقوت مادة سراة.

(8) : ما تداخل وما هبط وغور كل شيء فعره ياقوت مادة غور

(9) : الصفة ص 058

(10) : جمع حرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار ياقوت مادة حرة

(11) : الصفة ص 368 .

(12) : لسان العرب مادة حجز.

(13) : موضع بنجد منزل لبني مرة بن عوف على ليلتين من المدينة ياقوت مادة نخل.

(14) : أول حدود نجد فضاء تدفع فيه أودية كثيرة ياقوت مادة رمة.

(15) : موضع من وراء وادي القرى من جهة المدينة - ياقوت مادة حرة ليلى.

يلي الشام شغب⁽¹⁶⁾ وبداء⁽¹⁷⁾ والحد الثالث مما يلي تهامة بدر⁽¹⁸⁾ والسقيا⁽¹⁹⁾ ورهاط⁽²⁰⁾ وعكاظ⁽²¹⁾ والحد الرابع ساية⁽²²⁾ وودان⁽²³⁾ ثم ينحدر إلى الحد الأول بطن نخل. ووصف أيضا بأنه ما احتجز في شرقية من الجبال، وانحدر إلى ناحية فيد⁽²⁴⁾، وجبلي طيء إلى المدينة⁽²⁵⁾، وراجعا إلى أرض مذحج⁽²⁶⁾ تثليث⁽²⁷⁾ وما دونهما إلى ناحية فيد فذلك كله الحجاز⁽²⁸⁾. إذا أنه الإقليم الذي يمتد من قعره⁽²⁹⁾ اليمن حتى أطراف بوادي الشام⁽³⁰⁾.

(16) ضيعة خلف وادي القرى من جهة المدينة - ياقوت مادة حرة ليلي.

(17) واد عنرة بالشام ياقوت مادة بدا.

(18) موضع بينه وبين المدينة سبعة برد وقيل ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء ياقوت مادة

بدر.

(19) من أسافل أودية تهامة ياقوت مادة سقيا.

(20) موضع على ثلاث ليال من مكة ياقوت مادة رهاط.

(21) نخل في وادي بينه وبين مكة ثلاث ليال وبينه وبين الطائف ليلة ياقوت مادة عكاظ.

(22) اسم واد من حدود الحجاز، ياقوت مادة ساية.

(23) موضع بين مكة والمدينة، ياقوت مادة ودان.

(24) منزل بطريق مكة والمدينة، ياقوت مادة فيد.

(25) جبلي طيء يراد بهما أجا وسلمى. فأجا غربي فيد ياقوت مادة جبليين ومادة أجا، أما جبل سلمى جبل

بقرب من فيد عن يمين القاصد مكة ياقوت مادة سلمى. وطيء قبيلة يمانية تنسب إلى جلهمة بن أدد بن زيد

بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. الهمداني (أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب). الإكليل ط 1،

الدار اليمنية 1407 هـ - 1987 ص 27 يختصر إلى الإكليل.

(26) مذحج هومالك بن أدد بن زيد بن مرة من قبائل اليمن. الإكليل ص 27.

(27) موضع بالحجاز قرب مكة . ياقوت مادة تثليث.

(28) الصفة ص 58-59 ياقوت مادة حجاز، البكري معجم ما استعجم ج 1 ص 9 - غنيم (عبد الله يوسف)

أقاليم الجزيرة العربية - جامعة الكويت 1401 هـ - 1981 م ص 35 - يختصر إلى أقاليم.

(29) من قرى اليمن من ناحية ذمار ياقوت مادة قعره.

(30) المفضل أبو العباس بن محمد الضبي، المفضليات مكتبة الأباء اليسوعيين بيروت 1920 ص 416.

يختصر إلى المفضليات، الصفة ص 58، ياقوت مادة سراة، سبائك ص 16.

ولقد قسمه البكري إلى حجازين "الحجاز الأسود، وحجاز المدينة"⁽³¹⁾. ويبدو أن هذا التقسيم، للتفريق بين جبال السراة الجنوبية أو الحجاز الجنوبي، وبين الحجاز الشمالي، ولهذا التقسيم من الوجهة الجغرافية دلالة مورفولوجية⁽³²⁾. فكل قسم منهما إقليم له خصائصه المتميزة من حيث الارتفاع والمناخ والحياة النباتية يبلغ طول الحجاز من الشمال إلى الجنوب حوالي 700 ميل⁽³³⁾ وعرضه من الشرق إلى الغرب 250 ميل، وقد قسمه الجغرافيون المحدثون إلى قسمين⁽³⁴⁾.

1- سراة عسير: وهي المرتفعات الجنوبية، وتمتد ما بين خطي عرض 18-20 شمالاً، وهي أكثر ارتفاعاً من الأجزاء الشمالية إذ يتراوح ارتفاعها بين 1800-3000 متر فوق سطح البحر.

2 - سراة الحجاز: وتمتد شمال المرتفعات السابقة بين خطي عرض 20-30 شمالاً. فهي تفوق سابقتها في الامتداد، إلا أنها أقل ارتفاعاً من مرتفعات عسير، إذ يبلغ متوسط ارتفاعها 900 متر فوق سطح البحر، ويقل الارتفاع كلما اتجهنا شمالاً، ويقال لأعلاها السراة، كما يقال لظهر الدابة السراة⁽³⁵⁾. إلا أن بعض النصوص تقتصر في تسمية السراة على الأجزاء الجنوبية من جبال الحجاز، فالسراة هي العمود الفقري لشبه جزيرة العرب⁽³⁶⁾، وقد عرف قسمها المرتفع بجبال مَدَّين، حيث تصل قممها نحو ثلاثة آلاف متر، ولا تلبث أن تنخفض تدريجياً حتى تصل إلى نحو ألف متر بالقرب من يثرب، وإلى نحو مائتي متر فقط عند جبل رَضْوَى إلى الشمال

(31) : البكري أبي عبيد الله بن عبد العزيز معجم ما استعجم في أسماء البلاد والمواضيع تحقيق مصطفى السقا - كلية الآداب - جامعة فؤاد الول القاهرة - مطبعة لجنة التأليف ط1، 1364هـ ج1 ص 13 يختصر إلى البكري: معجم ما استعجم، أقاليم ص 36.

(32) : مورفولوجيا علم الهيئة أو الشكل وكذلك البنية وتطورها الذي يؤثر على الهيئة أو الشكل. توني (يوسف) معجم المصطلحات الجغرافية، دار الفكر العربي 1964 م ص 505 يختصر إلى توني.

(33) : وهبة (حافظ) جزيرة العرب في القلآن العشرين. الطبعة الثالثة - القاهرة 1375هـ 1956 ص 4 يختصر إلى وهبة - جزيرة العرب.

(34) : أقاليم ص 36-37

(35) : ياقوت مادة سراة.

(36) : شريف ص 13

الغربي منها أي ما يعادل 5900 قدم⁽³⁷⁾، وصف بأنه جبل منيف ذو شعاب وأودية، وهو من الجبال المشهورة عند العرب⁽³⁸⁾، وبين مكة والطائف يقع (جبل كرا يبلغ ارتفاعه مائتي متر أي ما يعادل 6000 – 6500 قدم⁽³⁹⁾). أما في الجنوب فتعود للارتفاع حاملة اسم السراة لتبلغ 3000 متر تقريباً عند عسير⁽⁴⁰⁾.

أضف إلى هذه المرتفعات جبل غزوان بجوار الطائف وفيه أبرد مكان، فلهيما جمد الماء في ذروته⁽⁴¹⁾، وجبل أحد شمال المدينة⁽⁴²⁾، وفي جنوبها الغربي جبل عير. وهما عبارة عن جبلان أحمران متقاربان ببطن العقيق، أحدهما عير الصادر، والآخر عير الوارد⁽⁴³⁾ وأبوقبيس وهو الجبل المشرف على الكعبة من شرقيها، وقيعقعان وهو الجبل الذي يقع غربي الكعبة⁽⁴⁴⁾، وثبير جبل يرى من منى والمزدلفة⁽⁴⁵⁾. تخترق السلسلة الحجازية (أو السراة) مجموعة من الوديان، أسهمت في تقطيع أوصال السفوح الغربية بشكل جعل عبورها أمراً ميسوراً، خاصة وإن الماء قلما يجري في هذه الأودية، ولذلك اختفت منها الأنهار الكبيرة، وحل محلها الجعافر. وهي عبارة عن نهيرات تتلقى مياه السهول الطارئة، أو تتزود من الأمطار القليلة التي سرعان ما تتضب تحت تأثير المناخ الصحراوي السائد في الإقليم⁽⁴⁶⁾.

(37) دائرة المعارف الإسلامية مادة حجاز.

(38) الصفة ص 267

(39) دائرة المعارف الإسلامية مادة حجاز شريف ص 13.

(40) بيضون (إبراهيم الحجاز والدولة الإسلامية المؤسسة للدراسات والنشر والتوزيع بيروت - لبنان ط 1، 1403 هـ 1983 م ص 33 يختصر إلى بيضون

(41) اصطخري ص 24، حتي (فيليب وغيره) تاريخ العرب. دار غنود للطباعة والنشر والتوزيع ط 7 ص

45 يختصر إلى حتي.

(42) اصطخري ص 23، ياقوت، مادة يثرب، سالم (عبد العزيز) تاريخ العرب في عصر الجاهلية - دار النهضة

العربية - بيروت 1917 م ص 386، يختصر إلى سالم، برو (توفيق) تاريخ العرب القديم - دار الفكر ط

1404 هـ 1984 م ص 84، يختصر إلى برو.

(43) ياقوت مادة عير

(44) اصطخري ص 22.

(45) اصطخري ص 23.

(46) علي المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص 157 - 158

ولعل بعض هذه الأودية كان أنهارا جارية أبان ما يعرف جيولوجيا بالعصر المطير، يستدل على ذلك من كثرة الترسبات التي تحملها عادة مياه الأنهار، فالآن الآن مازالت هذه الترسبات موجودة.

أكد هذا القول الكتاب الإغريق، فقد تركوا لنا أسماءها ومواقع جريانها ومصباتها في البحر الأحمر⁽⁴⁷⁾، على أن ذلك مجرد احتمالات لا يجزم القول بها. ولأودية الحجاز اتجاهان: أحدهما إلى البحر الأحمر كوادي أضم وهوواد عظيم تغزره أودية كثيرة⁽⁴⁸⁾، ويسمى أيضا الحمض وقد ورد اسمه في أشعار الجاهليين قال سلامة بن جندل⁽⁴⁹⁾:

يادار أسماء بالعلياء من أضم بين الدكاك من قوفم غضوب

وهو يمتد من خيبر إلى جنوب قرية الوجه، ويتصل بوادي القرى، والعقيق هوادي القرى يقع بين تيماء وخيبر، ويمر به طريق القوافل القديم الذي كان شريان الحركة التجارية في العالم القديم، وقد كان عامرا، وبه قرى كثيرة، ولذلك سمي وادي القرى⁽⁵⁰⁾، وتشاهد فيه إلى الآن آثار المدن والقرى، أما وادي العقيق الذي يعتبر أعظم أودية الحجاز فهو عبارة عن مجموعة أعقه (أي أودية شقتها السيول) أحدهما العقيق الأصفر وفيه بئر رومة، والآخر العقيق الأكبر وفيه بئر عروة⁽⁵¹⁾. والاتجاه الثاني للأودية نحو نجد، حيث السفوح الشرقية أقل انحدارا من الغربية، ومن

(47) علي: المفصل ج 1 ص 159

(48) الصفة ص 320

(49) ياقوت مادة أضم، شريف ص 14.

(50) ياقوت، مادة قرى، جواد: المفصل ج 1 ص 168 - 169، شريف ص 16

(51) الفيروز أبادي (مجد الدين أبي الظاهر محمد بن يعقوب) المغانم المطابة في معالم طابة تحقيق حمد الجاسر ط 1389 هـ - 1969 هـ 266 يختصر إلى الفيروز أبادي المغانم المطابة في معالم طابة. ياقوت مادة عقيق.

ثم فإن الوديان هنا أكثر طولاً، وأقل عمقا واحتفاظا بالماء، فوادي الرمة الذي يمتد من هذك إلى القصيم في الشرق يبلغ طوله 950 كيلومترا⁽⁵²⁾.

ويوجد في الحجاز وادي الصفراء، وعليه قرية الصفراء، وماؤها عيون تجري إلى ينبع⁽⁵³⁾ أو وادي بطلحان، ووادي رانونا، ووادي قناة ووادي مذيئيب في الجنوب الشرقي من يثرب، وهو شعبة من بطلحان، ووادي مهزوز في الجنوب الشرقي أيضا، ويأتي من الحرة الشرقية، حرة واقم⁽⁵⁴⁾. وفي الطائف وادي يقال له حفن، وهوبين الطائف وبين معدن البرام، ووادي مشريق في جنوبي الطائف، ووادي جلدان في شرقها وبين عرفة والطائف وادي نعمان وفيه الطريق المختصرة إلى مكة⁽⁵⁵⁾.

ولا ننس السيول التي تجري بسرعة، فتجرف ما يعترضها من عوائق وتتحد إلى البحر الأحمر، وتكون خطرا يهدد القوافل والمدن والأملاك وتصيب الناس بأفدح الخسائر فقد ذكر أن وادي مكة سال في الجاهلية سيلا عظيما... كسا ما بين الجبلين⁽⁵⁶⁾.

أما بالنسبة لمناخ الحجاز فعلى الرغم من ارتفاع الحاجز الجبلي في بعض المواقع فإنه لم يحدث تغيير مهم في مناخ الإقليم الذي كان أكثر تأثرا بالحرارة والرطوبة المرتفعتين في تهامة، فضلا عن ضغط الصحراء، وجفافها في الشرق، مما انعكس على طبيعته الإنتاجية حيث انحسرت إلا قليلا الأراضي الصالحة للزراعة في بعض الأماكن، بينما انعدمت تماما في أماكن أخرى، فالسهول الواقعة بين جبال السراة، والبحر الأحمر ضيقة في الغالب تتغير في الاتساع من الجنوب إلى الشمال

(52): الصفة ص 289، ياقوت مادة رمة، شريف ص 15، بيضون ص 33 - 34

(53): ياقوت مادة الصفراء، جواد: المفصل ج 1 ص 168، شريف ص 15

(54): الفيروز أبادي: المغانم المطابة في معالم طابة ص 275 حاشية، وص 424 سالم، ص 387.

(55): الصفة ص 260، سالم ص 374.

(56): الأزر في (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد) أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحق دار الأندلس - مدريد أسبانيا ج 2 ص 166 - 167 يختصر إلى أخبار مكة. الفاسي (أبي الطيب تقي الدين بن أحمد بن علي) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة 1375 هـ - 1956 م ج 2 ص 560 يختصر إلى شفاء الغرام.

حتى تبلغ أقص ضيق لها عند العقبة ، وهي حارة رطبة في الغالب غير صحية في بعض الأماكن⁽⁵⁷⁾.

فالرسول صلى الله عليه وسلم حين قدم إلى المدينة وهي أوبأ أرض الله أصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، فقال صلى الله عليه وسلم: " اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيب إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا في مدنها وصاعها وانقل وباءها إلى مهيعه " ⁽⁵⁸⁾ . انعكس هذا الوضع التضاريسي للحجاز بشكل طبيعي على حياة السكان ، حيث سمحت الطبيعة بقيام مجتمع زراعي في الطائف ⁽⁵⁹⁾ ذات المناخ المعتدل والهواء الشمالي الطيب ⁽⁶⁰⁾ ، الذي أثر في تلطيف الجو ، وجعلها مصيفا لاهل مكة ⁽⁶¹⁾ لأنها حسب قول المقدسي شامية الهواء باردة الماء ⁽⁶²⁾ معوضة قساوة مناخ مكة فهي في واد غير زرع ⁽⁶³⁾ ، وحولتها إلى حاضرة تجارية ، بينما اعتمدت يثرب على عدة مصادر في طليعتها الزراعة وبعض الحرف الصناعية ⁽⁶⁴⁾ ، مما انعكس بشكل أوبأخر على السكان وحياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وهذا ما سنبحثه فيما بعد .

⁽⁵⁷⁾ : شريف ص 14 .

⁽⁵⁸⁾ : ابن هشام : (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري) ، السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا وغيره ج 2 ص 239 - يختصر إلى ابن هشام السيرة والمهيع الجحفة وقبل قريب من الجحفة وهي ميقات أهل الشام قارن البخاري (أبي عبد الله محمد بن إسماعيل) صحيح البخاري ، مطبعة الهندي ج 2 ص 667 يختصر إلى صحيح البخاري . السهمودي (نور الدين علي بن أحمد) . وفاة الوفا - دار أحياء التراث بيروت - لبنان ط 1404 هـ - 1984 م ج 1 ص 39 يختصر إلى سهمودي .

⁽⁵⁹⁾ : ياقوت مادة طائف

⁽⁶⁰⁾ : اصطخري ص 24 ، ياقوت مادة طائف .

⁽⁶¹⁾ : ابن خرداذبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله) المسالك والممالك للممالك ، مكتبة المثنى بغداد ص 134 يختصر إلى ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ياقوت مادة طائف .

⁽⁶²⁾ : المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . مكتبة خياط بيروت لبنان ص 79 يختصر إلى مقدسي .

⁽⁶³⁾ : سورة إبراهيم : الآية 37

⁽⁶⁴⁾ : انظر الوضع الاقتصادي من هذا الفصل

2- الوضع الاقتصادي:

الحياة الاقتصادية لأي مجتمع هي الدعامة الأساسية الكبرى في وجوده، واستمرار بقائه وارتقائه، وقد فسرت هذه الدعامة على أنها الفعاليات الزراعية والصناعية والتجارية فيه. وقد ترتبط الفعالية الرعوية، وتربية المواشي... بتلك الفعالية. ولعلنا نجد أن لكل فترة زمنية خصوصيتها، وباعتبار أننا ندرس الفترة السابقة لظهور الاسلام فسنظهر ما لهذه الفترة من مميزات.

كان الإنتاج الاقتصادي في الحجاز كما في غيره من الأقاليم رهين البيئة بكل تفاصيلها، وبسبب الجفاف، وشح المياه والسيول، تداخلت البداوة مع التحضر، وتشابكت المصالح عند نهاية خط موحد ليؤلفا معا ظاهرة حضارية متميزة، أضف إلى ذلك تغير طرق التجارة، واحتلال الحبشة لليمن، وأنهيار سد مأرب، ونشوب اضطرابات سياسية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية لعرب الجنوب، مما هياأ ظروفًا ملائمة لنمو حركة التجارة في الحجاز ومكة بشكل خاص، فقد كان يشقها شريان رئيسي من شرايين التجارة العالمية تتفرع منه شرايين تتجه باتجاه الشرق والشمال الشرقي وفي موازاته شريان رئيسي آخر كان له دوره في عالم تجارة ذلك الزمن⁽⁶⁵⁾.

فأصبح الحجاز جسرا ربط بلاد الشام وحوض البحر المتوسط باليمن و الحبشة والصومال، والسواحل المطلة على المحيط الهندي⁽⁶⁶⁾.

وكان لذلك أعظم الأثر في قيام محطات تجارية أهمها مكة على الطريق البري وتغور تجارية بحرية كالشعبية مرفأ مكة القديم⁽⁶⁷⁾، والجار فرضة المدينة على شط البحر وجدة فرضة أهل مكة⁽⁶⁸⁾،

⁽⁶⁵⁾ : سالم ص 341

⁽⁶⁶⁾ : سالم ص 341، دلو(برهان الدين) جزيرة العرب قبل الاسلام، دار الفارابي - بيروت - لبنان 1919 ج

1 ص 130، يختصر إلى دلو

⁽⁶⁷⁾ : أخبار مكة ج 1، ص 157 - 160، ياقوت مادة شعبية، جواد المفصل، ج 4، ص 115

⁽⁶⁸⁾ : اصطخري ص 23 ص 961

فبرزت مكة برغم طبيعتها أرضها الجرداء الخالية من الزرع والأنهار والماء، ونشطت فيها قبيلة قريش نشاطا ملحوظا في التجارة الداخلية والخارجية، وأصبح لدى المكين في هذا المجال عدد من القواعد والأصول شكلت عرفا تجاريا متبعًا، وأصبحت التجارة تؤثر تأثيرا ملحوظا في تحديد الاتجاه الذي كان يتخذه التطور الاجتماعي آنذاك من حيث منحى الروابط القبلية والأسروية، والتوجهات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والأيدولوجية في السير على طريق الوحدة، وتفسخ معنى العصبية، وظهور عصبية أخرى تتعلق بالعمل الذي مارسه السكان، فكان مفتاح التحول الكبير الذي حققت مكة معه انطلاقتها العالمية هو نظام الإيلاف⁽⁶⁹⁾.

فعندما أصابت مكة سنوات من الجذب ذهبت بالأموال خرج هاشم إلى الشام وقابل قيصر، وطلب منه أن يكتب له أمانا بدخول بلاده، وكان له ما أراد حيث كتب الحاكم الروماني أمانا لمن يقدم من التجار القرشيين إلى بلاده، وأقبل هاشم بذلك الكتاب، وجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام يأخذ من أشرافهم أيلافاً⁽⁷⁰⁾، والإيلاف أن يأمّنوا عندهم في أرضهم بغير حلف وإنما هو أمان الطريق.

والإيلاف العصم.. ويراد العهد⁽⁷¹⁾. وهو العهد والذمام⁽⁷²⁾ أضف إلى ذلك أنها تعني الابتعاد عن الغلظة والجفاء... وجعل الحياة أكثر مرونة، وبالتالي ترك السلب والنهب والغزواتي وسمت بها حياة البدو.

وكان هاشم فيما يزعمون أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء إلى الشام، ورحلة الصيف إلى اليمن⁽⁷³⁾ قال تعالى: **إِلَيْلَافٍ فُيَيْشٍ إِيْلَافُهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ**

(69) : البلاذري (أحمد بن يحيى) أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف بمصر ج 1 ص 59 يختصر إلى أنساب الأشراف، الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف ط 4، ج 2، ص 252. يختصر إلى تاريخ الرسل والملوك.

(70) : مروج الذهب ج 2 ص 33، علي: المفصل ج 4 ص 67، ج 7 ص 302

(71) : تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 252 حاشية

(72) : ابن منظور، لسان العرب مادة الف.

(73) : ابن هشام: السيرة ج 1 ص 143

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ⁽⁷⁴⁾. وكان هاشم أول من أطعم الثريد بمكة، وإنما كان اسمه عمرا، فما سمي هاشما إلا بهشمة الخبز بمكة لقومه⁽⁷⁵⁾.

على كل الأحوال خرجت مكة من عزلتها إلى المجال الخارجي بفضل أبناء عبد مناف، هاشم واخوته الذين أصبحوا أصحاب النفوذ الأقوى والوجاهة في قبيلة قريش⁽⁷⁶⁾، فأخذ لهم هاشم حبالاً⁽⁷⁷⁾ من ملوك الشام الروم، وأخذ لهم عبد شمس حبالاً⁽⁷⁸⁾. فارتبطت مصالح مكة بمصالح الدول الكبرى، ولكي يربط هاشم مصالح القبائل المجاورة به أيضا عقد محالفات مع رؤسائها: وكان يحمل إليهم تجارتهم دون أجر.

حظي هذا النظام بتأييد بطون قريش لاتخاذها الخط التعاوني الهادف إلى تحقيق حد أدنى من التكافل الاجتماعي والاقتصادي في مكة. لكن هل نجح الايلافيون في تشكيل مؤسسة تعاونية تماما وغير متناقضة الأهداف والمصالح على نحو يتطابق مع مضمون الايلاف الرامي إلى توفير الرزق والاستقرار للمكيين

على الرغم من أن المكيين ارتبطوا بروابط المصاهرة مع العديد من القبائل حتى تكون روابطهم أشد وأمتن، وأظهروا في ذلك براعة سياسية وحنكة، ومالوا إلى السلم والأمن لأنهم قوم تجار، واتصفوا بالصدق والأمانة والوفاء. وإغاثة الملهوف ورد المظالم، أضف إلى ذلك تبوأ مكة مركز الزعامة على من جاورها من قبائل لأمد طويل، ووصولها إلى الدور المهيمن لا في الحجاز وحسب، بل وفي الجزيرة العربية

(74) : سورة قريش الآية 1 - 2

(75) : ابن هشام: السيرة ج 1 ص 143.

(76) : علي: المفصل ج 7 ص 301، شريف ص 205

(77) : العهد والذمة والأمان وهو مثل الجوار لسان العرب مادة حبل.

(78) : تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 252، ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم) الكامل في

التاريخ دار صادر، بيروت 1399 هـ 1979 ج 2 ص 16. يختصر إلى الكامل في التاريخ لسان العرب مادة ألف

شفاء الغرام ج 2 ص 84 علي: المفصل ج 7 ص 306

بأكملها، لم تكن متضامنة، فقد ظهرت فيها فئات غنية، وأخرى فقيرة مما كان لهذا أثر فعال في تفكيك بنية المجتمع القبلي من أسسها.

وقد عظمت قوافل قريش، وكثرت أموالها كما ذكر عن قافلة أبي سفيان أثناء الحديث عن وقعة بدر الكبرى⁽⁷⁹⁾، حملت هذه القافلة أموالاً لمعظم بطون قريش، وهذا دليل واضح على نشوء تضامن، وتعاون اجتماعي جديد مبني على أساس المصلحة التجارية، وفيما بعد قامت الأحلاف المختلفة كالمطبيين⁽⁸⁰⁾، مثلاً وغيره على هذا الأساس وسيؤدي ذلك التطور بالضرورة إلى ضعف الروابط المتينة على أساس من قرابة الدم، ونشوء روابط موحدة جديدة، وسينتقل اقتصاد مكة تبعاً لذلك إلى الشكل الرأسمالي، فتزداد العلاقات بين أفراد المجتمع تعقيداً، وستظهر فئات مستغلة، وسينتج عن ذلك صراع فتوي بين الأغنياء المتسلطين والفقراء المحرومين، وسيظهر صدى ذلك واضحاً بعد نزول الوحي في تصارع فريق المؤمنين الضعفاء والفقراء المحرومين مع فريق المعارضين خوفاً على مصالحهم المادية⁽⁸¹⁾، وصلت تجارة قريش على حد قول النويري إلى أنقرة⁽⁸²⁾، إلا أننا نشك في دساق هذا القول، فقد صممت جميع المصادر عن ذكر ذلك يضاف إلى هذا أن سياسة بيزنطة ما كانت تسمح بذلك، واكتفت بالقول أنه مات هاشم بغزة من أرض الشام⁽⁸³⁾، أي أن تجارته كانت للشام، فربما قابل أثناء تجارته أحد الرجال الروم قادمًا من أنقرة إلى بلاد الشام، فزعموا أنه وصل إلى أنقرة واختلف الأمر عليهم. أما الأسباب التي كانت وراء بروز حضرة وضعتها الطبيعة في أرض جرداء خالية من الزرع والأنهار، وعدم بروز غيرها كيثرب مثلاً، وهي أرض توفر فيها الماء

(79) ابن هشام: السيرة ج 1، ص 257، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 421، الكامل في التاريخ ج 2 ص 116

(80) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 138، مروج الذهب ج 2 ص 33، الكامل في التاريخ ج 1 ص 453

(81) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 339 - 340، الكامل في التاريخ ج 2 ص 66 - 67 وما بعد

(82) النويري: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة، المؤسسة

المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة ج 16 ص 33 تختصر إلى نهاية الأرب.

(83) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 144، انساب الأشراف ج 1 ص 58، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 254،

الكامل في التاريخ ج 2 ص 17.

والنبات، والطائف ذات الأرض الخصبة والمناخ المعتدل كما شاهدنا في الوضع الجغرافي، وتبوأ مكة مركز الزعامة في التجارة، هو قريبا من اليمن محور التجارة القديم، فأسهل هذا الموقع المتوسط المثالي في جعل التجارة الخيار الوحيد لمكة في المجابهة مع الطبيعة القاسية.

واتسمت الشخصية التاريخية الاقتصادية لمكة بصورة التاجر المتفوق الذي سخر كافة الإمكانيات والمرافق بما فيها الكعبة في سبيل مصالحها الاقتصادية وبما أن توفير الماء كان مرتبطا بنمو المدينة فقد عملت البطون القرشية على اتخاذ آبار خاصة بها. وذلك لما انتشرت قريش بمكة، وكثر عدد سكانها، قلت عليهم المياه واشتدت الحاجة إلى الماء حضرت في مكة آبار فحضر مرة بن كعب بن لؤي بثرا يقال لها رم.. وحضر كلاب بن مرة يقال لها خم.. وقال بعض أهل العلم: حفر قصي بن كلاب بثرا بمكة لم يحضر قبل منها، وكان يقال لها العجول⁽⁸⁴⁾، وذكر أسماء متعددة فوجود الماء على قلته وضحاته في ذلك الوقت كان جزءاً هاماً في عملية التطور التي انتهت بها.

كانت هذه التجارة برية أكثر منها بحرية، فلم تكن مكة أو غيرها من الحواضر الحجازية على معرفة تامة بالملاحة، فضلا عن خطورة الملاحة في البحر الأحمر، وأن كنا قد سمعنا عن ظهور بعض الموانئ بالحجاز كالشعبية السابق الذكر، فقد ورد اسمه في أخبار سفينة للروم تحطمت واستعمل خشبها في تسقيف الكعبة⁽⁸⁵⁾، أضف لذلك أن هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة خوفاً من أذى المشركين واجتيازهم البحر للوصول إلى الحبشة، والاتصالات بين قريش والنجاشي صاحب الحبشة⁽⁸⁶⁾، ليس من الضروري أن تتم على سفن عربية، ربما تم ذلك على

(84) أخبار مكة ج 2 ص 214 - 215 وما بعد، السهيلي (أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي)، الروض الأنف، مكتبة الكليات الأزهرية طبعة منقحة ج 1 ص 172 يختصر إلى السهيلي الروض الأنف، وانظر أيضا: ابن هشام: السيرة ج 1 ص 156 وما بعد، رضا (فؤاد) أم القرى. مؤسسة المعارف بيروت ط 3، 1401 هـ - 1981 م. ص 204 يختصر إلى أم القرى.

(85) : أخبار مكة ج 1 ص 157، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 287، علي: المفصل ج 4 ص 122.

(86) : ابن هشام: السيرة ج 1 ص 344 وما بعد.

سفن رومية أو غيرها كانت تجوب البحر الأحمر في ذاك الحين، فعندما " خرج الذين هاجروا الهجرة الأولى متسللين سرا، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعبية منهم الراكب والماشي، ووفق الله للمسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة ⁽⁸⁷⁾.

وفي موضع آخر قال الطبري " وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغا ⁽⁸⁸⁾ من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا ⁽⁸⁹⁾، فمن هاتين الروايتين نستطيع القول: أن الحبشة كانت معروفة عند العرب، وكانوا يذهبون إليها للتجارة، ولكن ليس من الضروري أن تكون على سفن عربية. ونجد في خبر عودة المهاجرين من الحبشة أنهم حملوا في سفينتين حملهم عليهما النجاشي، أي أن السفينتين كانتا من سفن الحبش ⁽⁹⁰⁾ ولكن لم يرد في الخبر اسم الموضع الذي أبحروا منه إلى الحجاز ولا اسم المرسى الذي رست السفينتان فيه، واتجه المسلمون منه إلى يثرب.

فهذه الرواية تؤكد إن التجارة البحرية وإن كانت موجودة فعلى نطاق ضيق، و كانت تتم على سفن غير عربية، فلم يعرف عرب الحجاز بناء السفن لأنهم لم يملكوا الخشب اللازم لتلك السفن وبنائها، ولم يملكوا اليد العاملة الماهرة لبنائها، ولعلنا نستطيع أن نتصور السفن التي كانت تجوب في البحر الأحمر غير صالحة للملاحة مسافات بعيدة، والدليل على ذلك أن جعفر بن أبي طالب سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكيفية التي يصلي بها في السفينة، فأجابه صلى قائما إلا أن تخاف الغرق ⁽⁹¹⁾ وفي خبر اختلاف عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد عندما خرجا في تجارة للحبشة يؤكد أن تلك السفن لم تكن تصلح للملاحة

(87) تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 329.

(88) سعة العيش، لسان العرب مادة رفغ.

(89) تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 328.

(90) انساب الأشراف ج1 ص 229، علي: المفصل ج7 ص 259.

(91) علي: المفصل ج7 ص 259.

مسافات بعيدة فعندما جلس عمرو على طرف السفينة دفع به عمارة في البحر⁽⁹²⁾. أي أن هذه السفن عبارة عن قوارب صغيرة، فإن وجدت التجارة البحرية فعلى نطاق ضيق. على كل الأحوال كان للقرشيين تجارة واسعة سواء أكانت برية أو بحرية جعلتهم يوظفون أموالهم في مشاريع استثمارية خارج الحجاز، وكان لهم معاملات تجارية كالشراكة⁽⁹³⁾، والمضاربة⁽⁹⁴⁾، فعرف أهلها الكتابة والحساب والمكاييل والموازين فدرت عليهم أرباحا عظيمة جعلتهم أثرياء نعموا بالحياة الدنيا، وغرقوا بالترف واتخذوا الرقيق الذي راجت تجارية آنذاك وتنافسوا فيما بينهم بعدد ما يملكون منه، وتباهوا بلباسهم حيث كانت الثياب الناعمة وذات الألوان الزاهية الغالية الثمن ملبوسات الأغنياء يؤيد ذلك قول مطرود بن كعب الخزاعي:

نكرني بالأزرق الحمروا والأ
رديّة الصفر القشبيات⁽⁹⁵⁾
أربعة كلهم سيّد
أبناء سادات لسادات

وكان اللباس في المجتمع يعكس التفاوت في الثروة، والتمايز الاجتماعي بين فئاته لأن مكانة الفرد الاجتماعية تقدر بما يملك، وبالتالي أصبح التمايز الاقتصادي يولد بالضرورة تمايزا اجتماعيا فيزداد الغني مكانه والفقير تدهورا 'مما كان لهذا أثر في ظهور حركات تمردية، فالصعلكة نتيجة مباشرة لهذا الشكل الاجتماعي الجديد.

وشغل الحج دورا كبيرا في ازدهار تجارة قريش جعلها تتخطى وتعتد له الأسواق لتبيع وتشتري في ظروف آمنة⁽⁹⁶⁾، وكان التجارة أصبحت ظاهرة اجتماعية تتفاعل إيجابيا مع العامل الديني.

(92) : انساب الأشراف ج 1 ص 232، الاصبهاني (أبي الفرج علي بن الحسين) الأغاني دار أحياء التراث العربي ج 9 ص 56 يختصر إلى الأغاني..

(93) : مخالطة الشريكين للمال لسان العرب مادة شرك وخلط

(94) : أن تعطي أنسانا من مالك ما يتجر فيه على أن يكون الريح بينكما أو يكون له سهم معلوم من الريح لسان العرب مادة ضرب.

(95) : ابن هشام: السيرة ج 1 ص 146

وظهر الربا⁽⁹⁷⁾ نتيجة لهذا الوضع الاجتماعي والاقتصادي، وكان في نظر القوم مصدرا لثراء الفئات العليا، وإعلاء كلمتها ولكنه كان في الوقت نفسه أحد أسباب سخط الناس عليه وعلى من يتعاطاه، لانه كان فاحشا جدا، وكان المرابون يستغلون حاجات الناس إلى المال، فيشتطون في الاستفادة من المقترضين ويتقاضون منهم فائدة كبيرة، ولم يمهلوا معسرا، ولم يتساهلوا في الأداء إلى وقت المسيرة، حتى بلغت الفائدة مائة بالمائة، فكان الدرهم يستوفى درهمين، والدينار دينارين يؤيد ذلك قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْسِبُوهَا" (98)، مما أدى إلى استبعاد الفئات المستضعفة، وغناء الفئات الأخرى، وبروز زعامات جديدة، فأمرة أبوسفیان للقاظلة التجارية تعني أن بني أمية أخذوا يحتلون مكان الصدارة لأنهم أعظم التجار ثراء، وعقد حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان، دليل على المكانة الاجتماعية التي وصل إليها بسبب غناه، فقد كان يشرب بكأس من فضة ويأكل بصحاف من ذهب وفيه ورد المثل أقرى من حاسي الذهب⁽⁹⁹⁾ كما سبق قوله.

أضف لذلك ترجيحاً ظاهرة انتشار الزنا بشقيه السري والعلني⁽¹⁰⁰⁾ تعود بشكل أوبآخر إلى الأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة، فلربما حمل الغني امرأة المستدين أوبنته على البغاء لإيفاء ما على أبيها أوزوجها من الدين الذي لم يكن سبيل إلى إيفائه لأنه يزداد على الدوام بما كان يضاف إليه من الربا الفاحش وقد صورهم القرآن الكريم بأنهم أناس متغطرسين غلاظ الأكباد، يرون أنفسهم فوق الناس لغناهم ولمكانتهم، لا يرحمون فقيرا، ولا يعطفون على يتيم، يأكلون أموال

(96) : انظر فصل المناسبات.

(97) : الزيادة على أصل المال من دون عقد تباع، لسان العرب مادة ربا.

(98) : سورة آل عمران: الآية (25).

(99) : الميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن أبراهيم النيسابوري) مجمع الأمثال. تحقيق

محمد محي الدين عبد الحميد ج2 ص 27 يختصر إلى ميداني: مجمع الأمثال

(100) : انظر فصل الأسرة، وأنواع الانكحة.

اليتامى، ويقهرونهم ولا يعطونهم حقوقهم⁽¹⁰¹⁾، وإذا جاءهم سائل انتهروه وطردوه طردا قبيحا، وإذا طلب محروم منهم عوناً أبعده عنهم، وإذا وزن بائعهم أنقص في الميزان، وإذا كال قصر في الكيل⁽¹⁰²⁾.

لعل التجارة والتعامل بالربا لم تكن مقصورة على القرشيين في مكة، أنما شاركهم بها وجهاء من ثقيف كأبي مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف الذي عد نفسه، والوليد بن المغيرة عظيمي القريتين⁽¹⁰³⁾، وفيهما نزلت الآية "وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَسُولٍ مِّنْ أَهْلِ الْبَيْتِ عِظِيمٍ"⁽¹⁰⁴⁾، وتوثقت العلاقات الاقتصادية بين الحاضرتين، وارتبطت مصالح ووجهاء القبائل بمصالح كبار التجار في مكة حتى أن بعض المكيين أمثال العباس بن عبد المطلب كان لهم أراض في الطائف⁽¹⁰⁵⁾ وعاش كل هؤلاء على الربا بطفيلية مريحة دون تعب لذا فبعد نزول الوحي جاء تحريم الربا، واستمر التعامل بالربا إلى أن جاءت الآية الكريمة بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ)⁽¹⁰⁶⁾.

أما المواد التي تاجروا بها فالأدم⁽¹⁰⁷⁾ من اليمن والطائف إلى بلاد الشام، وكان بعضها مصقولاً معتنى به مزخرفاً بالمذاهب عرف بالمذاهب⁽¹⁰⁸⁾ ونقلوا العطر من اليمن إلى مكة⁽¹⁰⁹⁾ وتاجروا بزبيب الطائف، ومعادن الحجاز، ورقيق أفريقية،

(101): سورة الأنعام: الآية 152، سورة الإسراء: الآية 34، سورة الفجر الآية 17، سورة الضحى الآية 9.

(102): سورة الرحمن: الآية 9، سورة المطففين: الآية 1 وما بعد.

(103): ابن هشام: السيرة ج 1، ص 387.

(104): سورة الزخرف: الآية 31

(105): أخبار مكة ج 1 ص 114، فتوح البلدان ص 68.

(106): سورة البقرة: الآية 278

(107): الجلد المدبوغ، لسان العرب مادة آدم.

(108): الزبيدي (محمد مرتض الحسيني) تاج العروس، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت 1385 هـ - 1965. مادة ذهب يختصر إلى تاج العروس.

(109): مقدسي، ص 97، الأغاني ج 1 ص 64 - 65، علي: المفضل ج 7 ص 293، دلو، ج 1 ص 136.

وقمح مصر في بعض الأحيان، والزيت الركابي من بلاد الشام عرف بالزيت الركابي لأنه كان يحمل على الإبل من الشام⁽¹¹⁰⁾.

وكان لخشب الصندل شأن في التجارة المكية يأتيها من الصين، إضافة إلى التوابل والافاوية على اختلافها، والذهب والأحجار الكريمة والعاج وغيرها من السلع الرئيسية التي تفتد إلى موانئ اليمن قبل أن تحملها القوافل إلى مكة، ولما كان سوق مكة لا يستوعب إلا القليل منها، فقد أخذت هذه السلع طريقها إلى الشام⁽¹¹¹⁾.

ذكرنا في البداية أنه كان للطبيعة أثر فعال في اقتصاد الحواضر، حيث حدد عمل القبائل لذلك اعتمدت يثرب على الزراعة كمورد هام في حياتها، واشتغل سكانها بدأب لاستثمار الإمكانيات الطبيعية التي توافرت في المدينة وصيروتها من أكبر المناطق الزراعية في شبه جزيرة العرب، ففيها أجسام النخيل، وبساتين الفواكه والخضراوات وحقول الحبوب وقد أشار امرؤ القيس إلى يثرب بقوله⁽¹¹²⁾:

علون بأنطاكية فوق عقامة كجرمة نخل أو كجنة يثرب

فالنخيل أهم مزارعات يثرب، وعليه اعتماد السكان، منه تدفع الأجور وتسدد الديون⁽¹¹³⁾، أضافه إلى الشعير والبقول والخضراوات والسلق والبصل والثوم والقضاء،

⁽¹¹⁰⁾ : تاج العروس مادة ركب، علي: المفضل ج 7 ص 293 - 294، شريف ص 205 - 206

⁽¹¹¹⁾ علي: المفضل ج 7 ص 290

⁽¹¹²⁾ أي علون الجنور بتياب عملت بأنطاكية وتلك الثياب فوق عقامة وهي ضرب من الوشي وقوله كجرمة نخل هو ما يصرم من البسر فشبه ما على الهواذج من ألوان الوشي بالبسر الأحمر والأصفر مع خضرة النخل والجنة البستان وخص يثرب لأنها كثيرة النخل ديوان امرؤ القيس ص 43 لسان العرب مادة جرم، علي المفضل ج 7 ص 71.

⁽¹¹³⁾ سمهودي ج 2 ص 155، شريف 357.

وحب اللبان والليمون والسفرجل والخوخ والفل والموز والعنب والتين والرمان⁽¹¹⁴⁾، وكانت أوسع الأراضي وأخصبها، وأكثرها غلة بأيدي أثرياء اليهود وأحبارهم ووجهاء الأوس والخزرج.

استغل أهل المدينة أراضيهم الزراعية بالمواجرة أو استثمارها على الثلث أو النصف أو أقل من ذلك أو أكثر⁽¹¹⁵⁾، وقد نجم عن الغبن في توزيع الناتج منازعات، وخصومات بين أصحاب الأراضي والمستأجرين والعاملين فيها، وكان الملاكون الكبار يستغلون حاجة أصحاب الأراضي الصغيرة أو الفقيرة الضعيفة الإنتاج إلى المال. فيضطرونهم إلى التخلي عن أراضيهم في حالة عجزهم عن تسديد الدين وفوائده العالية، أو إلى بيع ثمار نخلهم وأعنابهم مزاينة⁽¹¹⁶⁾ ومحاصيل شعيرهم وقمحهم محاقلة⁽¹¹⁷⁾، واعتمد سكان الطائف أيضا على الزراعة البعلية والمروية، فالحنطة الإنتاج الزراعي الأول فيها، كانت العير إذا قدمت من السراة والطائف، وغير ذلك تحمل الحنطة والحبوب والسمن والغسل إلى مكة⁽¹¹⁸⁾، وقد نسب البدويما عرفوه عن أهل الطائف من دهاء وكياسة إلى اعتيادهم العيش على الحنطة حتى غدا ذلك مضرب الأمثال⁽¹¹⁹⁾، ووجدت الفواكه المتعددة فيها كالعنب والرمان والخوخ والتين والسفرجل والبطيخ والموز⁽¹²⁰⁾، وضرب بزيبيها المثل⁽¹²¹⁾.

(114) ابن هشام: السيرة ج 2 ص 144، ياقوت مادة مدينة، الفيروز أبادي: المغانم المطابة في معانم طابة ص 189.

(115) صحيح البخاري ج 2 ص 820 وما بعد،

(116) المزينة: اشتراء التمر بالتمر من رؤوس النخل. صحيح البخاري ج 2 ص 763، الأفغاني: أسواق العرب ص 5150.

(117) المحاقله مفاعلة الحقل وهو الزرع، والمراد بيع الحنطة في سنبلها بحنطة صافية، صحيح البخاري ج 2 ص 763 حاشية، الأفغاني: أسواق العرب ص 50. أسواق ص 50.

(118) أخبار مكة ج 2 ص 239.

(119) دائرة المعارف الإسلامية مادة طائف.

(120) فتوح البلدان ص 69 - 70 - مقدسي ص 79. ياقوت مادة طائف، رحلة ابن بطوطة ص 132 حتى ص 151.

(121) مقدسي ص 79، ياقوت مادة الطائف

وقد تجاوز إنتاجها الزراعي حاجة الاستهلاك المحلي وتكون فائض للتبادل التجاري، وكانت هذه الزراعة مربحة، شجعت كبار تجار قريش في مكة على استثمار بعض أموالهم في ملكية الأرض كما لاحظنا فيما سبق من صفحات، مما يدل على نشوء الملكية الخاصة، وتلاشي الملكية الجماعية، وتضامن الحواضر وتآلفها وتعاونها على أساس المصلحة المشتركة، لا على أساس العصبية القبلية، فالطوائف كانت مصيفا لاهل مكة⁽¹²²⁾. وكانتا تسميان بالقريتين وعرفتا بالمكتتين وبعد أن كان العربي يزدرى الحرفة، نجد أنها تطورت، وعمل بها الأحرار والعبيد، وظهرت صناعات جديدة إلى جانب ما كان قائما وأدخلت بعض التقنيات على وسائلها وطرقها بهدف زيادة الإنتاج وتحسين نوعه وانقسم المجتمع إلى أهل صناعة وأهل زراعة وأهل تجارة وصار الإنتاج اجتماعيا بضاعيا أي للمبادلة، وليس للحاجة الضرورية ونشأت الأسواق، وتزامنت مع موسم الحج فتعددت فيها الأغراض وانعكس ذلك على الوضع الاقتصادي والاجتماعي للحواضر⁽¹²³⁾.

من بين هذه الصناعات التعدين والصناعات المعدنية ففي حديث خباب بن الارت " كنت قينا في الجاهلية اعمل السيوف"⁽¹²⁴⁾، أن هذه الصناعة كانت متوفرة - وقد ضربت العرب المثل بجودة ودقة صناعته، ونسبت اليه⁽¹²⁵⁾، وكان العاص بن هشام أخو أبي جهل والوليد بن المغيرة وهما من أشرف قريش حدادين.

أضف إلى ذلك انه ارتبطت الحدادة بالزراعة في بعض الحواضر كما هو الحال في يثرب⁽¹²⁶⁾. فكان الحدادون يصنعون ما يحتاج اليه الفلاحون والمزارعون من محاريث ومساح وفؤوس لحراثة الأرض، وعمل بهذه الصناعة أناس من العرب

(122) انظر الوضع الجغرافي

(123) : انظر فصل المناسبات.

(124) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 383، انساب الأشراف ج 1 ص 176 وما بعد، ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم)، أسد الغابة في معرفة الصحابة ج 2 ص 98 يختصر إلى أسد الغابة، لسان العرب مادة قين، علي: المفصل ج 7 ص 555.

(125) تاج العروس مادة خبب.

(126) شريف ص 376، سالم ص 405.

واليهود والموالي والعبيد ، وان كان الموالي والعبيد اكثر احترافا لها كأبوسيف⁽¹²⁷⁾.

ووجدت صناعة الأسلحة والدروع في يثرب وقد احتكرها اليهود، ففي حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) انه غنم كل ما لدى بني النضير من سلاح الحلقة والدروع⁽¹²⁸⁾. كما غنم من بني قريظة الدروع⁽¹²⁹⁾.

أما صناعة الغزل والنسيج فلم تخل حواضر الحجاز منها. فكان مجمع الزاهد حائكا⁽¹³⁰⁾. والعوام أبو الزبير، وعثمان بن طلحة، وقيس بن مخرمة خياطين⁽¹³¹⁾. واشتهرت الطائف بالدباغة، فقد ذكر أن الطائف بلد الدباغ يديغ بها ألاب الطائفية المعروكة⁽¹³²⁾.

وعرفوا بعض الصناعات الغذائية فبنوا سليم كانوا يبيعون السمن في أسواق المدينة⁽¹³³⁾، أضيف إلى ذلك معرفة أهل المدينة بضاعة الخمر والمكاتل والقفف التي قامت على سعف النخل، ومعرفة أهل الطائف بعمل الزبيب حتى ضرب بحسنة المثل⁽¹³⁴⁾. ولم تخل الحواضر من النجارين فكان عتبة بن أبي وقاص أخو سعد نجارا⁽¹³⁵⁾، ولقد عمل أمية بن خلف بضاعة الأواني الفخارية⁽¹³⁶⁾.

وبما أنه انقسم المجتمع انقسم إلى فئات غنية وفقيرة بسبب الوضع الاقتصادي الذي كان سائدا، فقد اقبل الأثرياء على شراء المصوغات لنسائهم وفتياتهم،

(127) أسد الغابة ج 1 ص 38 - 39 لم يذكر من هو أبوسيف.

(128) البلاذري: فتوح البلدان ص 31.

(129) ابن سعد: الطبقات الكبرى. لجنة نشر الثقافة الإسلامية ج 3 ص 117

(130) ابن قتيبة: المعارف ص 577.

(131) ابن قتيبة: المعارف ص 577.

(132) الصفة: ص 260. ياقوت مادة طائف.

(133) ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة ج 1 ص 306 حاشية سمهودي: ج 2 ص 47 ومث بعد.

(134) اصطخري ص 24، ياقوت مادة طائف.

(135) ابن قتيبة: المعارف ص 575، ابن رسته: الاعلاق النفسية ص 215.

(136) ابن قتيبة: المعارف ص 575، ابن رسته: الاعلاق النفسية ص 215.

فنشطت صناعة الحلي وكانت تعتمد على الذهب والفضة والأحجار الكريمة فاشتهر بها اليهود كبني قينقاع، وكانت لهم سوق الصاغة⁽¹³⁷⁾.

من دراسة الوضع الاقتصادي في الحجاز نستطيع أن نبرز الحقائق التالية وهي أن الطبيعة التي جعلت مكة تتبوأ مركز الصدارة في التجارة لتنافسها زراعيًا المدينة والطائف ولينتج عن ذلك نشوء العديد من الصناعات، فقد تطورت القوى المنتجة وتوسعت أعمال الصناعة، وازداد الإنتاج وتكون فائض للتبادل وحدث تقسيم للعمل جديد، وانفصلت الحرفة عن الزراعة، وارتبط الإنتاج الصناعي بسوق التبادل التجاري، وازدهرت حواضر عديدة ونظمت الأسواق التجارية فازداد العرب تقاربًا وتآلفًا على أساس المصلحة المشتركة، إلا أن الملكية الجماعية للأرض والكلأ تلاشت وحل محلها الملكية الخاصة، فكانت معظم الأراضي ملكًا للكبار والأثرياء، واستتبع التفاوت في الملكية والثروة تفاوتًا في المعيشة وتمايزًا اجتماعيًا بين أفراد القبيلة الواحدة فانقسم أبنائها الأحرار إلى أغنياء وفقراء. إضافة إلى الانقسام الذي كان قائمًا بين الأحرار والعبيد وبالتالي أصبح الفقراء يعملون لحساب الأغنياء وأصبح للمال الدور الأول في الحياة الاقتصادية والاجتماعية فتفككت روابط المجتمع وظهرت روابط جديدة على أساس من المصالح المشتركة والضرورات الدفاعية. فأبولهب مثلاً رغم أنه من قريش وعم النبي (صلى الله عليه وسلم) نصب العداوة⁽¹³⁸⁾، له لما رأى أن مصالحه تتهدد وقد انزل الله تعالى فيه وفي امرأته قوله تعالى: "تَبَيَّنَ يَدَ أَيْمِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيِّئُونَ أَلَا بِأُتِيَ لَهَبٌ وَاقِرًا تَأْتِيهِمْ كَمَآلَةٌ الْكُتُبِ فِي جِدْعِهَا خَبَلٌ مِّن مَّسَدٍ"⁽¹³⁹⁾.

3- الوضع السياسي:

عاش قدماء العرب في الحجاز كما في غيره من أقاليم شبه الجزيرة العربية في ظل المشاعة العشيرة، وأونطاق الترابط الجماعي البدائي على أساس صلة الدم

(137) ابن هشام: السيرة ج 3 ص 51

(138) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 380 - 381.

(139) سورة المسد: الآية 1 - 2 - 3 - 4 - 5.

والنسب، ولم يكن آنذاك وجود للملكية الخاصة، ولا للحكومة وأجهزتها ومؤسساتها المختلفة.

ولعلنا وجدنا فيما بعد حدوث تغييرات على المستوى الاقتصادي أدت إلى ظهور الملكية الخاصة، وتلاشي الملكية الجماعية كما شاهدنا في الوضع الاقتصادي فانعكس ذلك على المجتمع، وأدى إلى ظهور أشكال من التفاوت والتمايز بين أعضائه وترتيب مواقعهم الاجتماعية ضمن المجتمع على أساس الثروة مجتازا التقاليد والأعراف التي كانت سائدة في السابق. وقد أنتج هذا التطور الاقتصادي - الاجتماعي مؤسسة سياسية نظمت العلاقة بين الفئة المالكة لوسائل الإنتاج والفئات الاجتماعية الأخرى الخاضعة لاستغلالها الاقتصادي وأضفت على هذه العلاقة شرعيتها. ولكي نفهم الواقع الذي تمخض عن ظهور هذه المؤسسة لأبد لنا من الرجوع قليلا إلى الوراء لمعرفة الجذور التاريخية التي أسهمت في تكوينها.

الجزر الأول:

تمثله مكة الحنيضة المتصلة بعهد إبراهيم وابنه والبيت الذي أقاماه على ربوة حمراء⁽¹⁴⁰⁾، بيد أن هذه الفترة على أهميتها محاطة بالكثير من الغموض، لاسيما التحديد الزمني للفترة التي اتخذت مكة من خلالها موقعها المميز في شمالي الجزيرة العربية.

الجزر الثاني:

تمثله مكة الخزاعية بزعامة عمرو بن لحي الذي عمل تنشيط التجارة، وتسيير شؤون الحج، فأقام موائد الطعام للحجيج، وجلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة، ونصب الأصنام في الكعبة وما حولها، حتى يرغب القبائل العربية، وبخاصة قبائل الشمال في الحج إلى بيت مكة⁽¹⁴¹⁾.

(140) مروج الذهب ج 2 ص 18 - 19.

(141) أخبار مكة ج 1 ص 100.

كانت هذه الفترة أكثر وضوحاً من الفترة السابقة ففيها تم الانقلاب الديني استجابة لضغط القبائل المحيطة بمكة، أو المتعاملة معها خارج الحجاز، والتي تدين بالعقيدة الوثنية، وبذلك يكون عمرو بن لحي المؤسس الأول للمجتمع المكي، وواضع بواكيره التنظيمية.

- الجذر الثالث:

تمثله مكة القرشية التي دانت في تكوينها لقصي بن كلاب فبدت كالقلب النابض وسط تطاحن قبلي دائر على أطراف شبه الجزيرة العربية. فكانت قريش أثناء حكم خزاعة لمكة تحل في الشعاب، والجبال وأطراف مكة وما حولها⁽¹⁴²⁾، فكثرت مال زعيمها قصي بن كلاب، وعظم شرفه⁽¹⁴³⁾ وبما أنه تزوج ابنة سيد خزاعة حليل بن حبشية⁽¹⁴⁴⁾، رأى أنه أولى بالبيت وأمر مكة، ولكنه لم يصل إلى ذلك إلا بعد قتال مرير⁽¹⁴⁵⁾

إن وصول قصي لزعامة مكة. شكل نقطة تحول في تاريخ مكة السياسي والاقتصادي والاجتماعي قبل الاسلام، استند إلى المال بالدرجة الأولى، وليس إلى عرف قبلي تقليدي مقرر. فبعد أن أستقر الأمر له، قطع مكة أرباعاً بين قومه، وأنزل كل حي من قريش منازلهم في مكة التي أصبحوا عليها⁽¹⁴⁶⁾، فمن كانت حالتهم المادية حسنة أنزلهم في بطاح مكة حول الكعبة وهم قريش البطاح⁽¹⁴⁷⁾،

(142) أنساب الأشراف ج1 ص49

(143) تاريخ الرسل والملوك ج2 ص255، ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) العبر وديوان المبتدأ والخبر،

منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان ج2 ص334 يختصر إلى ابن خلدون، العبر.

(144) مروج الذهب ج2 ص31، البداية والنهاية ج2 ص187، ابن خلدون: العبر ج2 ص334

(145) ابن هشام: السيرة ج1 ص130 وما بعد تاريخ الرسل والملوك ج2 ص256، ابن خلدون: العبر ج2

ص334

(146) ابن هشام: السيرة ج1 ص132، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص258، ياقوت، مادة مكة، البداية

والنهاية ج2 ص207

(147) أنظر فصل القبيلة والبطون التي تعد من قريش البطاح.

وكان منهم التجار والأثرياء، وأسكن من لم تكن حالتهم المالية حسنة في ظواهر مكة وهم قريش الظواهر⁽¹⁴⁸⁾.

بعد ذلك ابنتي دار الندوة، وجعل بابها إلى البيت، ففيها كانت قريش تقضي أمورها⁽¹⁴⁹⁾، فما تتكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار الندوة ولا يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فيها وما تدرع جارية⁽¹⁵⁰⁾ إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه، وينطلق بها إلى أهلها، ولا يعذر⁽¹⁵¹⁾ غلام إلا في دار الندوة ولا يخرج غير من قريش، فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون الانزلوا فيها، فكان أمره في قومه أثناء حياته، وبعد مماته كالدين المتبع لا يعمل بغيره تيمنا برأيه، وتشريفاً له ومعرفة بفضله⁽¹⁵²⁾، وبذلك يكون قد كرس صيغة الحكم الفردي في مكة.

أما سميت الندوة لأن قريشاً كانوا ينتدون فيها، أي يجتمعون للخير والشر⁽¹⁵³⁾، وبالطبع كانت إدارتها بيد الشريحة الاجتماعية العليا من قريش، لأن الملاء يستمد مضمونه من دلالة اللغوية فالملاء أشرف القوم ووجوههم ورؤسائهم، والملاء القوم ذوو الشارة أي ذوو المظهر الحسن⁽¹⁵⁴⁾، وقد جعل قصي امتيازاً لهم بحق دخولها فلم يكن يدخلها من غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة، وكان يدخلها أولاد قصي أجمعين حتى من كان منهم دون الأربعين⁽¹⁵⁵⁾.

(148) أنظر فصل القبيلة والبطون التي تعد من قريش الظواهر.

(149) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 132، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 259، الكامل في التاريخ ج 2 ص 21.

(150) أدرعت الجارية لبست الدرع، ودرع المرأة قميصها، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 259 حاشية.

(151) يختن والأعدار الختان أو وليمة تقدم أثناء الختان لسان العرب مادة عنز،

(152) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 132، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 259، الكامل في التاريخ ج 2 ص 21.

ياقوت مادة مكة.

(153) أخبار مكة ج 1 ص 110، الأغاني ج 4 ص 384 حاشية، ياقوت مادة مكة: زيدان (جرجي) العرب قبل

الإسلام - دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان ث 330 يختصر إلى جرجي: العرب قبل الإسلام

(154) لسان العرب مادة ملاء. تاج العروس مادة ملاء.

(155) أخبار مكة ج 1 ص 109.

وذلك امتياز لذوي السلطة جديد ، أي أقتصرت حق العضوية على أصحاب النفوذ الذين بلغوا في موقعهم الاجتماعي والاقتصادي حداً يمكنهم من الأنداء إلى المجلس ، فيتشاورون ويتحدثون دون أن يكون لذلك صفة الزامية أو تقريرية. وكانت تتمتع هذه المؤسسة السياسية بسلطات تشريعية تنفيذية ، قضائية إدارية ، فهي تتناول الشؤون العامة والخاصة لسكان مكة.

وبعد أن كبر قصي أوصى بسلطاته لولده البكر⁽¹⁵⁶⁾ عبد الدار قائلاً له : أما والله لألحقنك بالقوم ، وإذا كانوا قد شرفوا عليك فجعل له الوظائف التالية الندوة والحجاجة والسقاية والرقادة واللواء⁽¹⁵⁷⁾ ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه⁽¹⁵⁸⁾ لأنه على ما يبدو أكثر غنا من عبد الدار ، ولكي يتوازي الأخوان في الشرف عهد لعبد الدار بالمرافق الحيوية السابقة الذكر.

فإذا دل هذا على شيء فإنه يدل على أن السلطة في مكة كانت عبارة عن مراكز نفوذ تقررها الأهمية الاقتصادية والثروة دون أن يكون لاسرة اوزعيم السيادة الكاملة على غرار ما كان لقصي زعيم قريش الأول ولعله أراد استمرار هذه الصيغة وراثية في أبنائه فهيأ عبد الدار لذلك كي يكون زعيماً لمكة.

وقد أدى غياب قصي كزعيم مؤسس إلى تفجير أزمة الحكم في مكة وانقلاب بني عبد مناف ضد بني عبد الدار لانتزاع السلطة الفعلية منهم ، فهل كانت نتيجة ذلك عودة الحكم الفردي إلى مكة ؟

بالطبع لم يتحقق ذلك لأن أحداً من الأخوة الأربعة عبد مناف ، عبد الدار عبد العزى ، عبد قصي لم يتح له الاستئثار بالسلطة ، أو الانفراد بها ، ولكنه أسهم في تكريس صيغة حكم الأقلية ، ونج عن ذلك ولادة زعامات جديدة ، كان لها دورها في تمزيق الوحدة القبلية ، وبعثرة مصالحها ، واضطراب انتماءاتها ، فظهرت

(156) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 136 ، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 259 ، الكامل في التاريخ ج 2 ص 21.

(157) أخبار مكة ج 1 ص 107 ، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ، ص 260 ، البداية والنهاية ج 2 ص 209.

(158) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 136 ، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 259 ، الكامل في التاريخ ج 2 ص 21 ، البداية والنهاية ج 2 ص 209.

التكتلات بخلفيتها التجارية الواضحة معبرة بصورة ما عن طبيعة هذه المرحلة سواء في الصراع بين مراكز النفوذ القديمة والجديدة، أو في التفاوت الاجتماعي الذي أسفر عنه.

فكان حلف المطيبين باكورة التكتلات، ونتيجة للصراعات الداخلية في أحد أهم مراكز النفوذ، وكمحاولات لتطويق طموح المراكز الأخرى، والحد من أخطارها، عقد في مكة بين بني أسد بن عبد العزى، وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة، وبني الحارث بن فهر بن مالك، وبين بني عبد مناف⁽¹⁵⁹⁾ لاعادة توزيع المرافق الاقتصادية في مكة بين جميع القبائل،

ثم قام تكتل آخر منافس حلف الأحلاف بين بني مخزوم وبني سهم، وبين جمح، وبني عدي بن كعب، وبين بني عبد الدار⁽¹⁶⁰⁾، واتفقوا على ألا يغيروا شيئاً مما كان قد فعله قصي، أي أن تبقى جميع المرافق الاقتصادية في مكة بأيدي عبد الدار، وتحالفوا وتعاهدوا على ألا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً⁽¹⁶¹⁾، لقد كانت المنافسة شديدة بين أطراف التكتلتين، فالأول يهدف إلى دعم مواقفه السياسية والاقتصادية، والثاني حرص على حماية مصالحه وإثبات وجوده في مرحلة من الفرز الحاسم للفتات المتصارعة اتخذت القوة سبيلاً إلى تحقيق أهدافها الحيوية " لتفن كل قبيلة من أسند إليها"⁽¹⁶²⁾ ذلك الشعار الذي عبر عن حدة الصراع، وضراوة التنافس بين الحليفين.

لم تتجاوز هذه الحرب المنتظر اندلاعها حدود التعبئة النفسية، وتحولت المجابهة إلى مهادنة، واستبدل قرار التصفية بميثاق للتعايش وتسوية للخلافات وذلك لأن مكة كموقع اقتصادي متميز ستكون المتضررة الأولى من هذا الصراع الذي

⁽¹⁵⁹⁾ ابن هشام: السيرة ج 1 ص 138، مروج الذهب ج 2 ص 33، ياقوت مادة مكة، الكامل في التاريخ ج 1 ص 453، البداية والنهاية ج 2 ص 209

⁽¹⁶⁰⁾ ابن هشام: السيرة ج 1 ص 139، مروج الذهب ج 2 ص 32، ياقوت مادة مكة، الكامل في التاريخ ج 1 ص 453، البداية والنهاية ج 2 ص 209.

⁽¹⁶¹⁾ ابن هشام: السيرة ج 1 ص 139، الكامل في التاريخ ج 1 ص 454.

⁽¹⁶²⁾ ابن هشام: السيرة ج 1 ص 139، ياقوت مادة مكة، الكامل في التاريخ ج 1 ص 454.

ستصيب سلبياته الأحلاف والمطيبين على السواء. وخرج حلف المطيبين معزز الموقع، محافظاً على السلطة الفعلية المتوارثة فحقق ما طمح إلى تحقيقه، بينما اقتصر مكاسب الأحلاف على وظائف الشرف كالحجاجة واللواء والندوة⁽¹⁶³⁾، التي جاءت بمثابة ترضية معنوية لبني عبد الدار، ولعل الإنجاز الأكثر أهمية الذي حققه هذا التكتل هو الاعتراف بشراكمته للمطيبين في زعامة المدينة رغم التفاوت في الثروة والنفوذ بين كلا التحالفين.

إذا كانت العلاقة واضحة بين الثراء والنفوذ السياسي للفرد، فقد ظهرت جيوب مستقلة أو متعارضة مع مركز النفوذ وذلك في فرع أو أكثر من العائلة القرشية الكبيرة نتيجة التطور المذهل للتجارة المكية بمصادرها المتنوعة وحرية التكسب فيها. ولكي يعزز المبدأ سلطته استخدم فرقة عسكرية (الأحاييش) قيل قوامها العبيد السود والمرتزقة العرب (وكان تحالف الأحاييش على الركن يقوم رجل من قریش والآخر من الأحاييش فيضعان أيديهما على الركن فيحلفان بالله القاتل وحرمة هذا البيت، والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض، ومن عليها، وعلى التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً ما بل بحر صوفة وما قام حري وثبير وما ضلعت شمس من مشرقها إلى يوم القيامة)⁽¹⁶⁴⁾.

وقد ظل الأحاييش قوة عسكرية إلى ما بعد ظهور الإسلام وحاربوا مع قریش يوم أحد، وقد رأسهم أبو عامر المعروف بالراهب⁽¹⁶⁵⁾، وساهموا أيضاً في الدفاع عن مكة عام الفتح⁽¹⁶⁶⁾، وفي ذلك مظهر أولي لشكل من أشكال الدولة، فدار الندوة الجنين الذي تكون نتيجة التناقض بين القوى الاجتماعية القابضة على الزمام

(163) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 139، ياقوت مادة مكة، الكامل في التاريخ ج 1 ص 454.

(164) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 278 - 279 يختصر إلى يعقوبي تاريخ

(165) الواقدي: (محمد بن عمر). المغازي. تحقيق الدكتور مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت لبنان ج 1 ص 207 يختصر على مغازي الواقدي. ابن هشام: السيرة ج 3 ص 65، تاريخ الرسل والملوك

ج 2 ص 512.

(166) مغازي الواقدي ج 2 ص 783، تاريخ الرسل والملوك ج 3 ص 65

والقوى الاجتماعية الأخرى المؤهلة موضوعيا، أنه جنين دولة التجار والمرايين، ومستغلي سائر المنتجين من الأحرار والموالي والعبيد⁽¹⁶⁷⁾.

أما في البادية فقد ظهر شكل من التنظيم السياسي يتناسب مع التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تحدث ببطء ظاهر وكما تحكمت البيئة في أسلوب معيشة الحواضر فمن المؤكد أن تتحكم في البادية بشكل أكبر، فليس للإنسان من سيطرة على الظروف المناخية سوى التقل، وهو تنقل قسري. بحثا عن الكأ والماء، فارتكزت القاعدة الاقتصادية على تربية الماشية⁽¹⁶⁸⁾، وجدوا في امتلاك أكبر عدد منها سواء عن طريق الغزو المسلح أو عن طريق السلب والنهب، وتضامنوا على أساس صلة الدم والنسب والأخوة حفاظا على ممتلكاتهم وأنعامهم، وكان شعارهم انصر أخاك ظالما كان أو مظلوما⁽¹⁶⁹⁾.

وقد أفضى تطور القوى المنتجة، وتوسع العلاقات التجارية بين مكة وأعراب البادية إلى تفكيك الروابط القبلية الجماعية البدائية وظهور الملكية الخاصة، أي أن تطور الاقتصاد الحضري كان له دور رئيس في تفكك الملكية الجماعية البدائية التي قام عليها الاقتصاد البدوي، وكانت أبرز مظاهره تملك سادات القبائل ووجهائها لقطعان الماشية وموارد المياه، والجد في تنمية ثرواتهم بوسائل مختلفة، ففي الغزو وحصلوا على حصة الأسد من الغنائم وفي ذلك قول الشاعر عبد الله بن عنمة الضبي⁽¹⁷⁰⁾.

(167) مروه (حسن) النزعات المادية في الفلسفة العربية، دار الفارابي بيروت 1978 - 1979 م ج 1 ص 236

237 - يختصر إلى النزعات المادية،

(168) بلاشير: تاريخ الأدب العربي ترجمة إبراهيم الكيلاني ط 2 404 هـ. 1984 م. دار الفكر بدمشق

ص 38، يختصر إلى بلاشير تاريخ الأدب، حتى: ص 49.

(169) انظر فصل القبيلة والعصبية القبلية.

(170) الأصمعي (أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك) الاصمعيات. تحقيق وشرح أحمد محمد

شاكر. عبد السلام هارون. دار المعارف بمصر ص 28 يختصر إلى الاصمعيات. الرفاعي: الاسلام في حضارته

ونظمه ص 23، حسن: حضارة ص 73، حسن: تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 62.

لك المرباع والصافيا وحكمك والنشيط والفضول

فنشأت داخل القبائل فئات متميزة عن بعضها في الثروة والحقوق، وأدى ذلك إلى التمايز الاجتماعي، مما كان لهذا أثر في تولي الرئاسة، وولادة شكل من السلطة يتناسب مع الملكية الخاصة، وبالتالي إيجاد قوانين تحمي أموال المالكين، وتجبر الفقراء والمساكين على الخنوع والسكينة، وظهر مجلس القبيلة بصورة أختلف في تركيبه ومهامه وسلطاته عما كان عليه في السابق، ف رئيس القبيلة مسؤول مباشرة عن قبيلته أيام السلم والحرب تنتخبه⁽¹⁷¹⁾، القبيلة ممن توافرت فيه خصال منها الشجاعة والجود والغيرة وسعة الثروة وسداد الرأي، وكمال التجربة مع كبر السن⁽¹⁷²⁾ حيث سادت الروح الديمقراطية المجتمع القبلي أضف إلى ذلك أنهم اشترطوا في اختيارهم له أن يكون أشدهم عصبية حتى يكون له الانتصار بعصبية ما يمكن له من الرياسة، ومن إطاعة القبيلة له، واحترامها لرأيه " فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية، فإذا نظرنا في أهل العصبية، ومن حصل لهم من الغلب على كثير من النواحي والأمم، فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم، والعفوع والزلات والاحتمال من غير القادر، والقرى للضيوف، وحمل الكل، وكسب المعدم، والصبر على المكاره، والوفاء بالعهد، وبذل الأموال في صون الأعراض⁽¹⁷³⁾. وقد استغلوا ظاهرة الكرم لدعم سلطتهم، لانهم اعتبروها إحدى مظاهر السيادة كقول حاتم⁽¹⁷⁴⁾ :

يقولون لي أهلك مالك فاقتصد وما كنت لولا ما تقولون سيدا

(171) بلاشير: تاريخ الأدب ص 39، حتى ص 57

(172) بلاشير: تاريخ الأدب ص 40، حتى ص 57، شريف ص 25، حسن: تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 62

(173) ابن خلدون: المقدمة ص 143.

(174) ديوان حاتم ص 41، الحوي (أحمد محمد)، الحياة العربية من الشعر الجاهلي دار القلم، بيروت -

لبنان ص 310 يختصر إلى الحوي الحياة العربية، حسن: حضارة ص 90، سالم ص 441،

فأصبحت سلطة الرئيس في ظروف نشوء الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين أبناء القبيلة لا تستمد وجودها من الأعراف المقررة وحدها بل صارت تستمدّها أيضا من قوة المال، فسعوا كل ما أمكنهم سعيه للغني حتى ولو على حساب استغلال الرعاة البدو وعملهم، وفي ذلك قول عروة بن الورد⁽¹⁷⁵⁾:

دعيني للغنى أسعى فاني	رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهـونهم لـديهم	وأن أمس له حسب وخير
ويقصه النـادي وترديـه	حليته وهـينه رده الصـغير
ويلقى ذوالغنى وله جلال	يكاد فؤاد صاحبه يطير

فأعضاء مجلس القبيلة وإن كانوا من الوجهاء والأثرياء ومن بسطاء الناس الذين لا يملكون شيئا، إلا أن القوة المهيمنة تبقى لذوي المال والثروة، أما ماعداهم، فلم يكن لهم أي نفوذ، أو منزلة، عليهم الإطاعة، والعمل برأي السادة الذين يديرون مناقشات المجلس: ويتولون المفاوضات مع القبائل الأخرى ويقومون بفض المنازعات، ويحكمون في الخلافات إذا لجأ إليهم المتخاصمون، وهم المسؤولون عن استضافة الذين يؤمون مضارب القبيلة، وهم الذين يقررون أمر الترحل الجماعي للقبيلة، ويحددون زمانه ومكانه.

غير أن هذا التنظيم البدائي للسلطة المتمثلة في مجلس القبيلة وأعضائه من وجهاء العشائر والبطون، إضافة إلى شاعر القبيلة الذي له مكانته لأن موهبة الشعر من صفات الكمال⁽¹⁷⁶⁾ وخطيبها الذي هولسان القبيلة في منافراتها ومناظراتها،

(175) ديوان عروة بن الورد، شرح أبين السكيت يعقوب بن إسحاق. تحقيق عبد المعين المللحي، مطابع وزارة

الثقافة والإرشاد القومي ص 91 يختصر إلى ديوان عروة بن الورد.

(176) اليعقوبي: تاريخ ج 1 ص 304، ألوسي ج 3 ص 84، علي: المفصل ج 9 ص 70، الرفاعي: الإسلام في

حضارته ونظمه ص 31 - 32. شريف ص 26، سالم ص 404.

وحاكم القبيلة وفرسانها⁽¹⁷⁷⁾، لم يرق إلى مستوى التنظيم السياسي لمجتمع دار الندوة أو الملاً في مكة.

يبقى وجه الشبه بين كلا التنظيمين أن القوة المهيمنة صارت لذوي الثروة والجاه، ففي مكة كانت الزعامة القرشية تشمل أموالاً موظفة في أعمال تجارية وفي استثمار الأراضي وبعض الموارد في مناطق أخرى وخاصة الطائف، أي أن السلطة والحكم كان بأيدي التجار والمرابين والأشراف، وكان لهذه السلطة أجهزتها ومؤسساتها كالسدانة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، ولما حدث الصدام استحدثت مؤسسات أخرى كالمشورة والاشناق (الديات) والقبعة والأعنة والسفارة والحكومة والأموال المحجرة⁽¹⁷⁸⁾ أرضت شعور العشائر، وأشعرتها بمشاركتها وحفظت تماسك القبيلة في حين لم يكن لحكومات القبائل أي مؤسسة مقابلة لذلك.

الوضع الديني

قبل البحث عن الوضع الديني في الحجاز، علينا أن نعرف ما هو الدين، وما هي ماهيته؟ فقد اختلفت الآراء في تحديد هذا الموضوع، وهي الدين إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر لها أثر في حياة هذا الكون، لأنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الإنسان، أو شعور وتفكير عند فرد أو جماعة وبين الكائنات أو الكائنات الإلهية،⁽¹⁷⁹⁾ والدين في تعريف اللغة الجزاء والحساب، ومنه قوله تعالى: (مالك يوم الدين)، والدين الطاعة والعادة والشأن، فقالت العرب مازال ذلك ديني وديني أي عادتي⁽¹⁸⁰⁾.

(177) البعقوبي: تاريخ ج 1 ص 304، الأغاني ج 3 ص 25، الواسي ج 3 ص 151، شريف ص 26، رفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه ص 34.

(178) زيدان: جرجي تاريخ التمدن الإسلامي - دار الهلال ج 1 ص 37 - 39، يختصر إلى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي.

(179) علي: المفصل ج 6 ص 6.5.

(180) لسان العرب مادة دين.

فالدين ليس عمل فردي، وإن كان للفرد في ذلك أهمية كبيرة، فقد كانت الأديان القديمة متباينة مختلفة منهم من اعترف بالخالق وأنكر البعث، ومنهم من عبد الأصنام، ومنهم من مال إلى اليهودية، وصنف مال إلى النصرانية⁽¹⁸¹⁾، ولعلنا نرى أن الأديان القديمة إجماعية تتعلق بالقبيلة كلها، فالإله للقبيلة يحميها ويشمل برعايته كافة أفرادها، فلا يمكن للمرء تغيير ديانته إلا إذا غير قبيلته، وهو أمر ليس من السهل القيام به.

ومن دين ديان بمعنى الحكم القاضي والقهار، ومنه شعر الأعشى الحرمازي يخاطب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا سيد الناس وديان العرب"⁽¹⁸²⁾ والديان الله ومن أسماء الله⁽¹⁸³⁾، وقد وردت لفظة دين في شعر ينسب لأمية بن أبي الصلت⁽¹⁸⁴⁾:

كل دين يوم القيامة عند الله ————— له إلا دين الحنيفة زور

إذا اختلفت الآراء حول تحديد لفظة دين، وتقوم الآن دراسات حول تاريخ الأديان، وعلم النفس الديني، باعتبار أن الدين نفسه ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية⁽¹⁸⁵⁾، فكل دين ظهر في التاريخ كانت له جذوره التاريخية في الموطن الذي ظهر فيه، وجذوره المعرفية المتصلة بالواقع البشري، بحيث ارتبط الدين بمستوى تطور العقل البشري الذي ظهرت فيه بذور التفكير النظري. وإمكانية الفصل بين الفكر والواقع.

(181) سبائك ص 435 - 436

(182) لسان العرب مادة دين، داوود (جرجس) أديان العرب قبل الاسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي ط 1 1404 هـ 1981 م² المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ص 175 يختصر إلى جرجس أديان

(183) لسان العرب مادة دين، جرجس: أديان ص 175.

(184) الأغاني ج 4 ص 122

(185) علي: المفصل ج 6 ص 9.

ومع تطور القوى المنتجة، وحدث التقسيم الاجتماعي للعمل، ظهرت أشكال عديدة من الدين كالطوطمية⁽¹⁸⁶⁾، والتوحيدية⁽¹⁸⁷⁾ والحنيفية⁽¹⁸⁸⁾ واليهودية والمسيحية والوثنية..... الخ تأثرت بمؤثرات خارجية وذلك بحكم صلات العرب التجارية والحضارية مع بلاد الشام، وفارس وغيرها من البلدان المتحضرة.

فإذا حاولنا أن نبحث عن أديان العرب في الحجاز قبيل الإسلام فالقرآن هو مصدرنا في هذا الباب، ففيه ذكر لما كانت عليه الحجاز من عبادات⁽¹⁸⁹⁾، وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل، إضافة إلى الحديث الشريف، والشعر المنسوب إلى الشعراء الجاهليين حيث نجد إشارات إلى بعض عقائد الجاهليين وإلى بعض الأصنام، أضف إلى ذلك كتب التاريخ ومؤلفات خاصة في الأصنام، وكتب الأدب والمعاجم وغيرها.

وقد كانت عبادة الأسلاف معروفة عند عرب الجاهلية في الحجاز تمجيدا لهم، أو للخوف منهم، ويتبين من تشدد الرسول صلى الله عليه وسلم في تسوية القبور مع الأرض أن المشركين كانوا يقدسون قبور أسلافهم، ويتعبدون لها على طريقة عبادة الأسلاف، ولهذا حاربها الرسول صل الله عليه وسلم وأمر بتسوية القبور⁽¹⁹⁰⁾.

(186) اعتقاد بعض القبائل بوجود صلة لهم بحيوان أو نبات يكون في نظرها مقدسا، فإذا كان حيوانا لا تقدم على قتله أو نباتا فلا تقطعه ولا تأكله إلا في أوقات المجاعة والشدة، خان: الأساطير العربية قبل الإسلام ص 25 وجرجس: أديان ص 13 وإي (علي عبد الواحد)، الأسرة والمجتمع، دار أحياء الكتب العربية ط 1367 هـ - 1948 م ص 7 يختصر إلى إي، ضيف (شوقي) العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر ص 89 يختصر إلى شوقي العصر الجاهلي

(187) الإيمان بالله وحده لا شريك له . لسان العرب مادة وحد .

(188) من كان على دين إبراهيم لسان العرب مادة حنف

(189) وردت في القرآن الكريم آيات متعددة أشارت إلى الحالة الدينية لعرب الحجاز في الفترة السابقة على ظهور الإسلام، سورة العنكبوت: الآية 61 - 63، سورة لقمان الآية 25، سورة الزمر: الآية 38، سورة الزخرف: الآية 87، سورة يونس الآية 18 - 22، سورة فاطر: الآية 42، سورة النحل: الآية 53 - 54 سورة الأنعام الآية 100، سورة النساء: الآية 60،

(190) صحيح البخاري ج 1 ص 168،

أما تقديس الأشياء المادية كالحجارة مثلاً، اعتقاداً بوجود قوة سحرية (الروح) تحل فيها، فقد كانت أكثر الديانات البدائية شيوعاً في الحجاز. كان الرجل منهم إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار⁽¹⁹¹⁾، فنطرق إلى أحسنها فاتخذها رياء، وجعل ثلاثة أثافٍ لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون، ويذبحون عندهما، ويتقربون إليها وكان من الجاهليين من يختار الأحجار الغربية فيتعبد لها، فإذا رأى حجراً أحسن ترك الحجارة القديمة، وأخذ الحجارة الجديدة يؤيد ذلك قول الطبري في تفسير الآية الكريمة "أَرَأَيْتُمْ مَنِ اخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ"⁽¹⁹²⁾، أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به، وأخذ الآخر يعبد. فكان إلهه ومعبوده ما يتخذ لنفسه⁽¹⁹³⁾.

فإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن أقدم آلهة العرب كانت أرضية متصلة بالتربة، وهذا أمر طبيعي لسكان البيد والصحراء فبما أن الحجر جزء من تلك التربة، ففيه شيء من روح الاله، ولهذا كان العربي يحتمله معه في أسفاره تيمناً به وتفاؤلاً، وأمنوا بوجود صلة لهم بحيوان أو نبات⁽¹⁹⁴⁾، إلا أن ذلك بقي أقل انتشاراً مع أن أثاره بقيت في أسماء بعض القبائل وفي عبادة بعض القبائل وفي عبادة بعض النباتات، فقد كانوا يمتنعون عن أكل الحيوان المعبود أو النباتات، فإذا فعلوا ذلك فيكون للضرورة، كما فعل بنو حنيفة عندما عبدوا إلهاً من حيس ثم أصابهم مجاعة، دفعتهم إلى مخالفة هذا التحريم فأكلوه فقال بعضهم⁽¹⁹⁵⁾

(191) ابن الكلبي (أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي) الأَصْنَام، تحقيق أحمد زكي نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب 1343 هـ - 1924 م دار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1384 هـ 1965 م ص 33

يختصر إلى ابن الكلبي، الأَصْنَام

(192) سورة الفرقان: الآية 43

(193) الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير) جامع البيان عن تأويل أي القرآن ط3، 1373 هـ - 1954 ج 19

ص 17 يختصر إلى جامع البيان

(194) أنظر قبل صفحات عن الطوطمية.

(195) ابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري) عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة - وزارة

الثقافة ج 2 ص 266، يختصر إلى ابن قتيبة: عيون الأخبار، ابن قتيبة: المعارف ص 205، سالم ص 459

أكلت حنيفة ربهَا زمن المتحجم والمجاعة

ويمكن الاستنتاج من روايات أهل الأخبار، أن من العرب من كان يؤمن بعقائد الطوطمية حتى الفترة التاريخية المتصلة بظهور الاسلام يؤيد ذلك قول الأزرقى أنه كان " لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها (ذات أنواط) يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوماً⁽¹⁹⁶⁾،

واعتقدوا بالجن والغول والسعلاة، ولعلنا نجد أن للبادية الموحشة أثراً كبيراً في خلق هذه التصورات التي رسمها القصاص فشعب فطري عاش في صحراء رحبية جديبة مليئة بالقيعات والأغوار والوهاد والنجاد والتلال. يقل سكانها والجائلون فيها، ويسدل الليل ستارة فيغمر الظلام والسكون والوحشة كل شيء فتسلط الأوهام، وتتجسم المخاوف والأحلام فيدعي كثير من العرب أنهم رأوا الجن وخالطوها وصادقوها وخاصموها ونسلوا منها، وفي ذلك قول الجاحظ: " أن جماعة من العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض، وتوسطوا بلاد الحوش، خافوا عبث الجنان والسعالي والغيلان والشياطين، فيقوم أحدهم فيرفع صوته أنا عائذون بسيد هذا الوادي، فلا يؤذيهم أحد، وتصير لهم بذلك خفارة"⁽¹⁹⁷⁾.

وتصوروا أن الجن تتألف من عشائر وقبائل تربط بينهما رابطة القرى، وصلة الرحم، فإذا اعتدى معتد على جان انتقمت قبيلته كلها من الجوار، وتحفظ الذمم والعقود، وتعقد الأحلاف، ومن قبائلها بنو غزوان⁽¹⁹⁸⁾، فان تقاتلت الجن أثار قتالها

عاقل: (نبية) تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي 1979 - 1980 ص 25 يختصر إلى عاقل، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، دلو ص 143.

⁽¹⁹⁶⁾ أخبار مكة ج 1 ص 130، وانظر ياقوت: مادة الانواط، سالم ص 460، محمد نعمان الجارم - أديان العرب في الجاهلية ص 127. وناط الشيء ينوطه غلقه لسان العرب مادة نوط،

⁽¹⁹⁷⁾ الجاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر) الحيوان، دار إحياء التراث العربي بيروت ط 3، 1388 هـ -

1969 ج 6 ص 217 - يختصر إلى الجاحظ: الحيوان

⁽¹⁹⁸⁾ : لسان العرب مادة قرر، تاج العروس مادة قرر.

عواصف الغبار، أي أنهم فسروا حدوث العواصف والزوايع بفعل الجن⁽¹⁹⁹⁾، وزعموا أن الجن كثيرا ما تعرضت للرجل المسافر، وصرعته كما حدث لعلمة بن صفوان، وحرب بن أمية⁽²⁰⁰⁾، ولسذاجتهم آمنوا أن الكهان يتلقون علمهم من الجن⁽²⁰¹⁾، قال تعالى: "وَجَعَلْنَا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْإِبْرَ وَخَلَقْنَاهُمْ وَخَرَقْنَاهُمْ لَهُ بَيْنِينَ وَبَنَيْنَا عَلَيْهِمْ سُبُكًا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنَ الْغَمِّ يَصْرِفُونَ"⁽²⁰²⁾ فكان من عبد الجن بنومليح من خزاعة وهم رهط طلحة الطلحات⁽²⁰³⁾، وقد خصوا بعض أصناف الجن بالتحدث عنها كالغيلان والسعالى وأطلقوا أسم الغول على كل شيء من الجن يعرض للسفار، ويتلون في ضروب الصور والخياب، ذكراً كان أو أنثى ألا أن أكثر كلامهم أنه أنثى 000 والسعلاة أسم الواحدة من نساء الجن تتغول لتفتن السفار، قالوا وإنما هذا منها على العبث أولعها أن تفرع أنسانا فتغير عقله⁽²⁰⁴⁾.

هذه التصورات الوهمية عن الجن وغيرها، كان لها أساسها الواقعي المرتبط بمستوى تطور الوعي، فإن وعي الجماعة القبلية الوثنية لم يكن في مستوى من التطور يرتفع به لتصور المعاني والأفكار تصورا مجردا من علاقاتها المادية بالواقع المحسوس⁽²⁰⁵⁾، لهذا أثرت هذه الاعتقادات على مختلف نواحي حياة الإنسان أضف إلى ذلك أنهم آمنوا بالسحر واستخدموه، فقد كان جزءا من الدين، لذلك اقتصر على الكهنة الذين وجهوه لمآربهم الخاصة، ولا بتراز الأموال وترويع بسطاء الناس، وإرغامهم على الخنوع، وقد أرتبط الطب عندهم بالسحر وبقي الإنسان عاجزا أمام الطبيعة لأنها حالت دون معرفة العالم، وألهمت الإنسان عن دراسة علل الظواهرات

(199) علي: المفصل ج6 ص711،

(200) الجاحظ: الحيوان ج6 ص206 - 207، مروج الذهب ج2 ص140 - 141

(201) مروج الذهب: ج2 ص125 وما بعد، علي: المفصل ج6 ص758 - 759

(202) سورة الأنعام: الآية 100

(203) أبين الكلبي: الأصنام ص34، الحوت (محمود سليم) في طريق الميثولوجيا عند العرب ط3 دار النهار

للنشر ببيروت 1983 ص114 يختصر إلى الحوت الميثولوجيا.

(204) الجاحظ: الحيوان ج6 ص158 - 159 - 160

(205) النزعات المادية ج1 ص289،

الكونية الطبيعية والاجتماعية، وعرفت بذلك تطوره المساعد فقد كانت معتقداتهم بسيطة بساطة حياتهم الاجتماعية.

وكما أثر تطور القوى المنتجة على الوضع الاجتماعي، كذلك فإن ازدياد الصلات مع العالم الخارجي، جعلهم أكثر وعياً وفتحا، فظهرت الوثنية، وغدت أكثر الأشكال انتشارا وأقواها جذورا في المجتمع العربي قبل الاسلام، لأنها كانت انعكاسا لأوضاعهم الاجتماعية، وشروطها المادية، وهي على أشكال مختلفة بعضها على صور أنسان، كود⁽²⁰⁶⁾ والعزى⁽²⁰⁷⁾ وسواع⁽²⁰⁸⁾، وبعضها على صورة حيوان أو طائر، فقد كان الحمام من بين الطيور التي عبد العرب أصنامها في الجاهلية، فأقاموا له صنما في الكعبة، ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم: لما نزل مكة، وقضى طوافه (دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها)⁽²⁰⁹⁾، فقد كان الحمام مقدسا في مكة في الجاهلية، ولا يزال يضرب المثل في الأمن بحمام الحرم، وكانت بعض الأصنام جمادا لاصورة لها كالكالات⁽²¹⁰⁾.

ولهذه الأصنام معابد وسدنة وحجاب، فتحج القبائل إليها، وتطوف بها، وتقدم لها القرابين، والنذور، والعطايا لنيل رضاها عليهم، ودفع أذاها عنهم، فلكل قبيلة آلهتها الخاصة بها، وفي بعض الأحيان تشترك طائفة من القبائل في عبادة أو تعظيم إله معين كاشتراك قريش وبنو كنانة، وخزاعة، وجميع مضر في تعظيم العزى التي كان سدنتها بنو شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم⁽²¹¹⁾، واشتراك الاوس

(206) ابن الكلبي: الأصنام ص 56

(207) ابن الكلبي: الأصنام ص 18، الالوسي ج 2 ص 203

(208) ابن الكلبي: الأصنام ص 57، ابن هشام السيرة ج 1 ص 80

(209) ابن هشام: السيرة ج 4 ص 54

(210) ابن الكلبي: الأصنام ص 16 - 102، ابن حبيب (أبي جعفر محمد) المحبر مكتبة المثنى ببغداد

1361 هـ - 1942 م ص 315 يختصر إلى المحبر، ياقوت مادة لأت، البداية والنهاية ج 2 ص 192

(211) ابن الكلبي: الأصنام ص 27، الالوسي ج 2 ص 205

والخزرج وقريش وهذيل وخزاعة في عبادة مناة، وثقيف وقريش وجميع العرب في تعظيم اللات⁽²¹²⁾.

هذا ما حرض قريش على جمع أصنام العرب، وضمها إلى الكعبة، فعضمت جميع القبائل هذا المجتمع من الأصنام، وحثت إليه سنويا، وفي ذلك دليل على توجه العرب نحو التضامن والوحدة، لأن تعدد الآلهة تعبير عن العلاقات القبلية التعددية الانقسامية.

قيل أن أول من أدخل عبادة الأوثان إلى مكة حسب أغلب الروايات عمرو بن لحي، عندما مرض وخرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ فقالوا له: هذه أصنام فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنعا فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنما يقال له هبل، فتقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته⁽²¹³⁾، ثم شاعت عبادة الأصنام بين الناس، لكن بعض الأساطير تشير إلى الوثنية منذ عهد عاد⁽²¹⁴⁾.

وزعم ابن الكلبي أن خمسة أصنام من أصنام العرب كانت من زمن نوح وهي:
 ود وسواع، ويفوت، ويعوق ونسر⁽²¹⁵⁾ وقد ذكرت في القرآن الكريم "قَالَ نُوحٌ رَبِّ
 إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَرَأْسًا زَيْنَةً وَمَا لَهُمْ لَكَ بِهَؤُلَاءِ مِنْ شَيْءٍ فَتَضَارَّ
 آلَهُمْ لَكُمُوعًا وَلَا تَفْقَهُوا شِعْرَ اللَّهِ" ⁽²¹⁶⁾، فلما صنع
 عمرو بن لحي ما صنع دانت العرب لهذه الأصنام وعبدوها واتخذوها من جملة ما
 عبدوا واتخذوا⁽²¹⁷⁾، ومن ثم كان لجرهم صنمان من حجر اساف وثلاثة⁽²¹⁸⁾، وكان

(212) أمين الكلية، الأصنام ص 16 - 102، المحبر ص 310، باقوت مادة لأت، البداية والنهاية ج 2 ص 192.

(213) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 79 العقنوقي: تاريخ ج 1 ص 295، مروج الذهب ج 2 ص 29، الواسطي ج 2 ص

201، جواد: المفصل ج 4 ص 14.

(214) : مروج الذهب ج 2 ص 124، حرجي: العرب قبل الاسلام ص 85

(215) أبو الكلب: الأصنام ص 13

(216) سورة نوح: الآية 21 وما بعدها.

(217) ابن الكلبي: الأصنام ص 13

لها أيضا تمثالا غزالين من ذهب⁽²¹⁹⁾، وهذا دلالة كافية على أن عرب الحجاز كانوا يدينون بالوثنية منذ عهد طويل قبل ظهور عمرو بن لحي سيد خزاعة على مسرح الأحداث في تاريخ مكة والحجاز.

فلربما نسبت عبادة الأوثان إلى عمرو بن لحي لأنه مركزها في الكعبة، وجعل لها أشكالا متقنة ليستثمرها فيما بعد المملأ لتعزيز نفوذه، وكان لهذه الآلهة دور هام في جميع أمور الحياة آنذاك فقد أشركتها القبائل معها في الحرب كقول الشاعر⁽²²⁰⁾:

وسار بنا يغوث إلى مراد وناجزناهم قبل الصباح

وحملت قريش في معركة أحد اللات والعزى لحمايتها، وبعث الحماس في نفوس محاربيها⁽²²¹⁾، وأشركوا هبل كبير آلهة قريش في الاستفتاء بمشاكلهم الخاصة والشخصية كالزواج والولادة، والختان والسفر، والعمل والخصومات وما شابه ذلك وكأننا بهم مسيرونا بأوامر الآلهة وقراراتها، فنفوا عن أنفسهم كل مسؤولية ووضعوها على عاتق الآلهة. ولشدة تقديسهم لهبل فقد كان على صورة رجل من عقيق أحمر مكسور اليد اليمنى أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب⁽²²²⁾، فمتى تم ذلك ؟

من الطبيعي أن يكون قد تم ذلك عندما أثرت قريش عن طريق التجارة والحج والربا. واستثمار الأموال، فأرادت أن تعكس ذلك على ألهتها فميزتها بيد ذهبية، ولعل ذلك دليل على شدة تعظيم قريش لها، وبالتالي ليكون ذلك عاملا مهما في

(218) ابن الكلبي: الأصنام ص 29

(219) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 154.

(220) ابن الكلبي: الأصنام ص 10، سعد: في تاريخ العرب قبل الإسلام ص 341

(221) تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 193.

(222) ابن الكلبي: الأصنام ص 28، ابن هشام: ج 1 ص 84، أخبار مكة ج 1 ص 119، سبانك ص 436 عاقل

تنشيط التجارة القرشية، ولذا عملت الزعامة القرشية جهدها للإبقاء على الشرك، والمحافظة على التقاليد الوثنية المتعلقة بالكعبة. أضف إلى ذلك ظهور فئات لها تقاليد وأساليب في العبادة تختلف عن الشائع والمألوف عند غيرهم كالحمس والحلة والطلس، فالحمس والاحمس المتشدد على نفسه في الدين⁽²²³⁾، والحماسة الشجاعة⁽²²⁴⁾، والحمس قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش خاصة من العرب، وبنو ربيعة بن عامر، وهم ربيعة وكلاب وعامر ولدتهم مجد بنت تيم بن مرة، وكانوا حمسا، وبرواية أخرى الحمس قريش وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة ومد لج وعدوان والحرث بن عبد مناه، وعضل أتباع قريش وسائر العرب الحلة⁽²²⁵⁾.

فمن أيت أتهم التسمية ؟ هل لتشددهم في الدين ؟ لأنهم كانوا لا يخرجون من الحرم إذا حجوا، وكانوا لا يسلوؤن السمن، ولا ينسجون مظال الشعر، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم، وشرعوا لمن قدم من الحاج أن يطوف بالبيت وعليه ثيابه مالم يذهبوا إلى عرفة، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا عراة، أو في ثوب أحمرسي.

وأن طافوا في الثياب لم يحل لهم أن يلبسوها وكانوا لا يستظلون أيام منى زيادة في تحمل المشاق، وإمعانا في تعذيب النفس، وهم يؤدون طقوسا من طقوس الحج، كما أنهم لا يدخلون إلى عرفات بل يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل الله ولا نخرج من الحرم⁽²²⁶⁾.

⁽²²³⁾ أخبار مكة ج1 ص 181، ابن دريد (أبي بكر محمد بن الحسن) الاشتقاق تحقيق عبد السلام محمد هارون نشر مؤسسة الخانجي بمصر مطبعة السنة المحمدية 1378 هـ - 1958 ج1 ص 250 يختصر إلى

ابن دريد: الاشتقاق

⁽²²⁴⁾ لسان العرب مادة حمس

⁽²²⁵⁾ : أخبار مكة ص 179 - 180، المحبر ص 178، شفاء الغرام ص 42

⁽²²⁶⁾ ابن هشام: السيرة ج1 ص 211 وما بعد، أخبار مكة ج1 ص 179 - 180 شفاء الغرام ج1 ص 41، العلي (صالح أحمد) محاضرات في تاريخ العرب ط3 مطبعة الإرشاد بغداد 1964 ج1 ص 213 يختصر إلى محاضرات في تاريخ العرب.

أم آتتهم التسمية من الشجاعة والمنع والمحاربة ؟ ولكننا نستبعد ذلك فقريش كما نعلم قوم تجار، والتاجر يهيمه الأمن والسلام والهدوء، لان توفير هذه الأشياء من شأنها أن تشيع في نفوسهم مشاعر الاطمئنان، فيزداد عدد الوافدين للحج مما يجلب المنافع المادية لأهل مكة، ولكبار تجارها وسدنة معابدها بخاصة.

ولعل التفسير الأقرب للصحة أنه آتتهم التسمية من التشدد في الدين، خاصة وأنهم اعتبروا أنفسهم أرفع مكانة ممن سواهم، على كل الأحوال الحمس ظاهرة دينية تتعلق بالناحية الاقتصادية قصد منها بيع الثوب الاحمسي، فكل حاج قدم لمكة، إما أن يطوف عريانا، أو يشتري ثوبا أحمسا، فكأنهم خلطوا بين الدين والناحية المعاشية.

الفئة الثانية الحلة: كانوا إذا دخلوا مكة تصدقوا بكل حذاء، وكل ثوب لهم، ثم استأجروا من ثياب الحمس تنزيها للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم، فان لم يجدوا ثيابا طافوا عراة، وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس، يأخذ ثيابه فمن لم يجد ثياباً طاف عريانا، فكانت الحلة تستأجر الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت، لأنهم كانوا إذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا شراء شيء، ولا بيع شيء حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم⁽²²⁷⁾ وقبائل الحلة هي تميم وضبة ومزينة، والرياب وعكل وثور وقيس عيلان كلها ما خلا عدوان، وثقيف وعامر بن صعصعة، وربيعة بن نزار كلها، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد⁽²²⁸⁾.

أما الخلاف الرئيس بين الحلة والحمس هو في الوقوف بعرفة عند بداية الحج، وهو ما لم تكن تفعله الحمس لأن عرفه تقع خارج الحرم - حرم مكة - والخلاف الثاني هو في لباس الإحرام. ووجدت فئة ثالثة هم الطلس بين الحلة والحمس يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس،

⁽²²⁷⁾ ابن هشام: السيرة ج 1 ص 211 وما بعد، المحبر ص 181، شفاء الغرام ج 2 ص 42 - 43 محاضرات

في تاريخ العرب ج 1 ص 214

⁽²²⁸⁾ المحبر ص 179 اليعقوبي: تاريخ ج 1 ص 298

وكانوا لا يتعمرون حول الكعبة، ولا يستعيرون ثيابا ويدخلون البيوت من أبوابها، وكانوا لا يثدنون بناتهم ويقفون مع الحلة، ويصنعون ما يصنعون⁽²²⁹⁾.

وعلى الرغم من انتشار عبادة الأوثان وشيوعها، ووجود الفئات الأنفة الذكر، آمن البعض من عرب الحجاز بالزندقة⁽²³⁰⁾ انتقلت إليهم عن طريق الفرس⁽²³¹⁾ وقد أشار ابن حبيب إلى وجود الزندقة في قريش⁽²³²⁾، وفي الزندقة قوله تعالى:

"وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"⁽²³³⁾

وتسربت اليهودية إلى الحجاز عن طريق الهجرة والتجارة ولكنها انحصرت في الواحات كيثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء⁽²³⁴⁾، والمراكز الواقعة على طريق المواصلات والتجارة البرية والبحرية، كان من عشائر اليهود بنو النضير بنو قريظة، بنو قينقاع، بنو بهدل وغيرهم⁽²³⁵⁾، اختلطوا بالعرب وتعايشوا معهم وكانوا في حياتهم الاجتماعية والسياسية كالعرب حتى أن أسماءهم تحمل الطابع العربي والبعض منهم تعرب كالشاعر السموأل بن عاديا⁽²³⁶⁾، إلا أنهم على الرغم من ذلك لم ينجحوا في نشر اليهودية بين العرب وأن كان قد ذكر اليعقوبي "نهود قوم من الاوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير"⁽²³⁷⁾، ويرجع ذلك إلى

(229) : المخبر ص 181.

(230) الزندقة نوعان ثنوية وهي القول بالنور والظلمة ودهرية لقول من يؤمن بها بالنهر، سالم ص 480.

(231) : سالم ص 480

(232) : سورة الجاثية: الآية 24

(233) : سمهودي ج 1 ص 163، الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص 56، حسن: تاريخ الاسلام السياسي

ج 1 ص 87.

(234) : حسن تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 87، محاضرات في تاريخ العرب ج 1 ص 171، سالم ص 485.

(235) : سمهودي ج 1 ص 163، الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص 56، حسن تاريخ الاسلام السياسي

ج 1 ص 87.

(236) : علي: المفصل ج 9 ص 771

(237) : اليعقوبي: تاريخ ج 1 ص 298.

أسباب، منها عدم اهتمامهم بالتبشير بدينهم اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله المختار وأن من سواهم من الشعوب غير جدير بذلك.

كانت هذه الديانة جامدة خامدة لآيهم أتباعها نشر الدين بقدر ما يهتمهم المحافظة على حياتهم، وعلى أملاكهم، وعلى تجارتهم التي تعود على ملاكهم وأحبارهم وتجارهم ومرابيهم بنفع كبير وبمال وفير، ودخلت النصرانية إلى الحجاز عن طريق التجارة والرقيق لاسيما الرقيق الأبيض، فقد وجد في يثرب نفر من النصراني، استورد للخدمة وللقيام بالأعمال والخدمات اللازمة لأثرياء مكة، وقد أثر هؤلاء بالبعض فتتصر قوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وورقة بن نوفل بن أسد⁽²³⁸⁾.

ولم يقتصر أمر النصرانية على مكة، فقد كان في الطوائف نفر من الموالي على دين النصرانية⁽²³⁹⁾ منهم عداس مولى عتبة بن ربيعة⁽²⁴⁰⁾، وقد ساعد وجود اليهودية والنصرانية في الحجاز على تغيير الوعي الديني باتجاه النظر التجريدي نحو مشكلة الوجود متجاوزاً النظرة الوثنية الحسية وفي خلق ظاهرة الحنفاء، فالحنيف بالأصل الرافض لعبادة قومه، والخارج على الأصنام والوثنية، لأن الحنيفية ثورة على الوثنية، وتعدد الآلهة، ودعوة إلى التوحيد الإلهي وهي أشبه بحلقة ذات شأن كبير في مرحلة الانتقال من الجاهلية الأخيرة إلى الإسلام من الرجال الذين كانوا أحنافاً قس بن ساعدة الأيادي، زيد بن عمرو بن نفيل، أمية بن أبي الصلت، ورقة بن نوفل، الملتمس ابن أمية الكناني، زهير بن أبي سلمى، كعب بن لؤي⁰⁰ وغيرهم⁽²⁴¹⁾.

كل هؤلاء تشككوا في عبادة الأصنام، وساحوا في الأرض بحثاً عن الدين الصحيح، دين إبراهيم، وزهدوا في المجتمعات الوثنية، واعتزلوا عن الناس في

⁽²³⁸⁾ : يعقوبي: تاريخ ج 1 ص 298، دلوج 2 ص 224

⁽²³⁹⁾ : أسد الغابة ج 3 ص 389، دلوج 2 ص 224

⁽²⁴⁰⁾ : مروج الذهب ج 1 ص 88

⁽²⁴¹⁾ : مروج الذهب ج 1 ص 88، آلوسي ج 2 ص 244، جواد: المفصل ج 6 ص 463، شلبي (روؤف) المجتمع

العربي قبل الإسلام، المكتبة العصرية صيدا - بيروت ص 31 وما بعد يختصر إلى شلبي: المجتمع العربي قبل

الإسلام

كهوف للتأمل والعبادة والصلاة، واعتقدوا بوحداية الله خالصة، مما كان لهذا عظيم الأثر في تقويض الوثنية، فأخذت تتداعى أمام هذه الأفكار، وكثر اخفار الآلهة، لان المتحنفون آمنوا بالله ويوم الحساب⁽²⁴²⁾، فواكبت الحنيفة بذلك تطور المجتمع المكي وحاجاته وتطورت معه إلى أن دخلت مرحلة جديدة يمكن عدها المرحلة التي مهدت لظهور الاسلام، هذه الألوان والأنماط من التفكير والسلوك الديني، أعطتنا فكرة عن الحياة التي ذخرت بها حياة المجتمع العربي في الحجاز قبل الاسلام.

أناس جعلوا لانفسهم مكانة أعلى وأرقى من البقية، فالذين دانوا بالحمس عدوا أنفسهم وكأنهم فوق مستوى البشر، لذلك استتبعوا سلوكا خاصا متشدداً متحمسا في التعبد.

2 - باحثون ابتلعهم التفكير ففكروا بالبحث والتقيب، وقالوا: إن لله دينا هو أرضى مما أنتم عليه اليوم.

3 - حكماء 00 ما فتئوا يعظون الناس، ويتنبئون للبشرية بالخلاص من حيرة الفراغ من الوحي المعصوم، والخروج إلى دائرة اليقين.
وترقب الناس بهذه الإرهاصات يوم الخلاص، وانتظرت البيئات الاجتماعية لحظة النور، ليدركوا أن فجر الحقيقة قد أذن بالشروق.

(242) : عوض الله (أحمد أبو الفضل) مكة في عصر ما قبل الاسلام ط 2، 1401 هـ - 1981 م مطبوعات دار الملك عبد العزيز ص 96 - 97 - 98 يختصر إلى عوض الله مكة، حسن: تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 87، عاقل: تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ص 284 وما بعد.